وقفات مع سورة الحج

لعام: 1436

أ.أناهيد السميري

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- ✓ هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله –عزَّ وجلَّ–، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

اللقاء الأول: ألقي يوم الخميس 12 ذوالقعدة 1436

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله–عزَّ وجلَّ–حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا ونسأله–سبحانه وتعالى–أن نكون من الشاكرين على نعمائه، فإنّ من أعظم نِعَم الله–عزَّ وجلَّ–على خلقه أن يدلّهم الصراط المستقيم ويجعل القرآن الكريم هو دليلهم على هذا الصراط المستقيم.

وهذه النعمة كلما شُكرت كلما زيدت فيها البركة؛ ولذا من الواجبات علينا–خصوصًا في هذه الأوضاع التي يعيشها العالم الإسلامي–أن نزداد شكرًا لربنا أن يسّر لنا أسباب العلم وسهّلها لنا ووفّقنا لها ويسّر لنا الاجتماع بهذه الصورة اليسيرة، فإننا نخرج في أمن من الله، ونجتمع في أمن الله، وننصرف إلى بيوتنا في أمن الله، فهذه كلها نعماء ثم أننا نجتمع على كتاب الله وعلى سنة نبيه–صلى الله عليه وسلم–متبرّئين من البدع، خائفين من الضلال، خائفين أن نكون من القوم الذين غضب الله عليهم في أنهم تعلموا ولم يعملوا، وهذه كلها مع اجتماعها نعمة عظيمة، وانظر حولك ترى آثار فقدان هذه النعمة!

أسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن لا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، وأن نكون ممن شكر صدقًا وحقًّا فكان لربه شكّارًا كان لربه ذكّارًا اللهم آمين.

سورة الحج من أعاجيب السور

هذه السورة كما سماها أهل العلم (**مِن أعاجيب السور**)، والسبب في كونها من أعاجيب السور:

- ما تضمّنته من معاني مجموعة في كل باب من أبواب العقيدة وكل باب من أبواب العبادة.
- ومن أعاجيبها أنها تخاطب الناس على وجه العموم ثم ينقسم الناس انقسامات إلى أن ينتهي التقسيم في هذه السورة العظيمة بالكلام حول المؤمنين التي تأتي سورة المؤمنون بعدها تفصيلًا لها، فتكررت مناداة الناس في السورة أربع مرات: {يَا أَيُّهَا النَّاس} ثم في نهاية السورة نودي المؤمنين فقال الله–عزَّ وجلَّ–في آخر السورة كما سيتبيَّن لنا مناديًا المؤمنين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} ثم يأتي تفصيل خطاب أهل الإيمان في السورة التي بعدها مباشرة وهي سورة المؤمنون، فأصبحت سورة الحج مدخل لسورة المؤمنون.
- من أعاجيب هذه السورة أيضًا: الكلام حول نفس اسم السورة فهي السورة الوحيدة التي فيها اسم لركن من أركان الإسلام، ليس هناك سورة اسمها الصلاة وليس هناك سورة اسمها الصيام ولا سور تذكر بقية الأركان إلا هذه السورة فيها الحج.

وقفات مع سورة الحج

والسبب لذلك والله أعلم-وهذه إحدى الوقفات المهمة-أن مسألة الحج تجمع بين أمرين أساسيين:

الأول: ستظهر حين أعرف معنى كلمة الحج في اللغة، فما الحج في اللغة؟

الحج في اللغة بمعنى: القصد إلى معظّم، فمعنى هذا أن الحج فيه ركنين:

الركن الأول: عمل قلبي وهو القصْد، أي: تقصد، تريد، تتجه. وهنا: القصد إلى معظَّم، سيظهر من كلمة: (القصد) أنه أصلًا قصد بالقلب.

يأتي الأمر الثاني: أن هذا القصد لمن يراه الإنسان معظّمًا، وهذا العمل القلبي الثاني، أي: تقصد بقلبك من تعتقد أنه معظَّم، فالقصْد إلى معظَّم هذا اسمه (حج).

هذا القصد إلى معظَّم سيكون أولًا بالقلب ثم ينتقل من كونه بالقلب إلى كونه بالجوارح، فتأتي المسألة الثانية، يعني كلمة "الحج" بنفسها كلمة عظيمة تحتاج إلى تفكير طويل، ليس هذا الذي يمر مباشرة على الخواطر أن كلمة الحج معناها بعض أعمال نقوم بها، إنما الحج أصلًا مجردًا من الأعمال هو قصْد إلى معظَّم، تقصد بقلبك أولًا وأنت تعتقد أن الذي تقصده صفته أنه معظَّم، ثم إذا قصد قلبك المعظَّم سيجر قلبك الجوارح.

الأمر الثاني الذي يجعل كلمة الحج عجيبة: أن الجوارح ستقوم بكل أركان الإسلام تحت ظل الحج.

كيف؟! ها هي ستصلي الصلوات المعلومة، وأيضًا ستطوف والطواف في صورته الحقيقية يشبه الصلاة، وها هي ستنفق مالًا من أجل أن تحج وهذا يشبه في أصله الزكاة، فهذان ركنان: مقصود الصلاة، ستصلي صلواتك وفي نفس الوقت ستطوف والطواف في صورة يشبه الصلاة. وستنفق مالًا فستستخرج حب المال الموجود في النفس، تزكيها بإخراج المال. ثم ستمتنع عن أمور، ستمتنع عن الرفث والفسوق والجدال في الحج، وهذا الامتناع يشبه الصيام.

فليس هناك حاج حقيقي حجّه مبرور إلا وقد تحقّق فيه القيام بأفعال أركان الإسلام، فقد صلى لله الصلاة المعروفة، لم يترك الصلاة، وأيضًا سيطوف فسيزيد صورة لصلاته عن الصورة الأساسية المعروفة، ثم سيدفع مالًا، ثم سيمتنع وهو في كل هذا ذاكرًا لله، في كل هذا معظمًا لله، في كل هذا يشهد أن لا إله إلا الله، في كل هذا يُظهر ذلّه وانكساره لله.

فانظر للأركان الخمسة من الإسلام تجدها كلها متمثلة في الحج؛ إذًا معنى ذلك أن سورة الحج تتميّز عن بقية السور باسمها لأنها سميت سورة الحج.

كأن السؤال: لماذا الحج هو الذي برز وأصبح أكثر أهمية من بقية الأركان؟!

لا تفهم أنه أكثر أهمية لكن هذا الحج فيه بقية الأركان تامة الوضوح سواء كانت الصلاة أو الصيام أو الزكاة ثم شهادة أن لا إله إلا الله وما يلحقها هذا أظهر شيء أصلًا في الحج، لأن الذي يشهد أن لا إله إلا الله شهادته تظهر بوضوح عندما يقول: "لبيك اللهم لبيك".

هو يقول في: "أشهد أن لا إله إلا الله" ليس لي إله أحبه وأعظمه إلا الله، فإذا كان يحبه ويعظمه من آثار حب الله وتعظيمه أن يقول: لبيك، أن يستجيب للنداء، فالذي يلبّي هذا عبد وقع في قلبه محبة الله، تعظيم الله، فكان أثر محبة الله وتعظيم الله

تلبية النداء؛ ولذا الإنسان عندما يقول: "لبَّيك" كما سيتبيَّن لنا إن شاء الله من خلال النقاش سيكون هذا عبد كأنه يسمع نداءً، متى تقول: لبَّيك؟! عندما تسمع نداءً، فالذي يحب الله ويعظم الله يسمع نداء الله فإذا سمعه لبَّى النداء.

وهذه الكلمة: (لبَّيك) تأتي من لُبّ الإنسان، فهو يحبّ ربّه حبًّا ويعظّمه تعظيمًا يجعله يعطيه ويُقبل عليه بلبّه فيقول: لبَّيك، وهذا الذي يلبّي ربه يلبّيه من جهة المحبة لأن في لغة العرب "امرأة لبّة" أي: امرأة محبة لأبنائها، (لبَّة): محبة، فأصبحت التلبية تأتي أيضًا من وجه المحبة، والعرب تقول: " أخذ بتلابيبه"، كيف أخذ بتلابيبه؟ يعني أخذ به منقادًا، فالذي يقول: لبَّيك. يقول: أنا منقاد، وكل هذه الحقائق هي حقيقة أثر (لا إله إلا الله)، فكأنّ (لا إله إلا الله) تظهر بوضوح في كلام الحاج لأنه يبتدئ بأن يلبي ربه كما تعلمون في أول المناسك إلى أن يصل إلى يوم العيد ويكون في قلبه من الفرح بهذا العمل الذي يرجو أن يقبله الله كما أخبر الله: **{قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}**(1).

فالذي يقول: "الله أكبر" معناه أنه يقول: إقبالي عليك وقبولك لي أكبر عندي من كل شيء (الله أكبر الله أكبر) ويبقى يكبر.

فيصبح الإنسان بين التلبية والتكبير يحقق معنى أنه ليس لي إله أحبّه وأعظّمه إلا الله.

نعيد الأمر الأول: هذه السورة العظيمة من أعاجيب السور، تبدأ عظمتها من النداءات الموجودة فيها، ففيها نداءات للناس إلى أن يصل النداء إلى المؤمنين، وسيتبيَّن-إن شاء الله-وسنتوقف مع هذه النداءات ونتكلم فيها بالتفصيل.

يأتي الأمر الثاني: الوقوف مع اسم السورة، هي السورة الوحيدة التي سميت باسم ركن من أركان الإسلام ولم تسمى سورة غيرها، والسبب في عظمة الاسم يأتي من جهتين:

يأتي من جهة معرفتك أصلًا لمعنى الاسم، قبل أن نتكلم عن الحج في المصطلح الشرعي فلنناقش الحج في اللغة، هذه المعلومة يجب أن نحفظها معنى الحج في اللغة: القصد إلى معظَّم، فمعناه أن الحج سيجمع بين أمرين:

1. بين عمل القلب.
2. وعمل الجوارح.

تقصد بقلبك، جوارحك ستكون تابعة لك.

إذًا الجهة الأولى التي سيكون فيها اسم السورة عجيب أنها تشمل عملين مهمين: عمل القلب وعمل الجوارح.

ثم أن الحاج-إن صدق في حجه-لابد أن يكون معظمًا لله، إذا كان معظمًا لله فمعناه هو في نفسه ذليل، وهذا الذل واضح جدًا في سورة الحج بدليل أنها السورة الوحيدة التي فيها سجدتين، وهي التي فيها كلمة: "المخبتين"، وهي التي ورد

---

(1) [سورة يونس: 58]

فيها أكثر من مرة الكلام عن السجود والأمر به، فهذا كله إشارة إلى أن السورة تدور حول: الخضوع، الذل، الانكسار. تدور حول العبودية.

فهذا شيء من أسرار الحج، ثم انظر لها من جهة الأعمال البدنية تجد أن من أسرار الحج نفسه الذي هو اسم السورة أن أعمال البدن كلها–أعمال الإسلام–من قول: (لا إله إلا الله) إلى أن نصل إلى الصلاة، إلى الصيام، إلى إيتاء الزكاة، كلها مجموعة في الحج. من أي جهة؟

إذا كانت كلمة (لا إله إلا الله) فإن تحقيقها بالتلبية وبيانها بالتكبير؛ لأن الذي يقول: (الله أكبر) يبيّن أنه ليس في قلبه إله يحبه ويعظمه أكثر من الله، الله أكبر من كل أحد، والله أكبر من كل شيء، من كل المشتهيات ومن كل الرغبات ومن كل الاتجاهات ومن كل التعلّقات، كأنه يبيّن ويوضح ما معنى كلمة: (لا إله إلا الله) في قلبه.

- إذا بدأنا بكلمة: (لا إله إلا الله) فهذا بيانها وأكثر من ذلك البيان.
- وإذا أتيت إلى الصلاة فإن الحاج يصلي صلواته وأيضًا يضيف على ذلك أنه يطوف، والطواف صورة من صور الصلاة.
- وإذا أردت المال وإخراجه فهو يحج بماله.
- وإذا أردت الامساك والامتناع فهو يمتنع عن الرفث والفسوق والجدال في الحج.

فهو في حال تحقيق لمقاصد أركان الإسلام؛ ولذا ترى هذا الحج عظيم في أثره على الخلق إن صدقوا في أمرين مهمين:

1. إن صدقوا في مقاصدهم لا يريدون إلا أن ينظر لهم الله وهو راضٍ عنهم.
2. وإن صدقوا أيضًا في تعظيمهم لربهم، فكما يقولون: "إن الركب كثير والحجاج قليل"، فإن كثير من الخلق يُفضح عدم تعظيم ربهم في المواقف والأحداث.

نسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن يسترنا بستره ويجعلنا ممن عظمه حقًا ولما اختبره ظهر منه الجميل وستر منه القبيح اللهم آمين.

إذًا معنى ذلك أن هذا الاسم العظيم–اسم السورة–فيه من الأعاجيب التي تظهر داخل السورة، والناس حتى في الحج لهم هذه الأربعة أصناف وسيتبيَّن لنا، فكأننا سنأتي في لحظة نرى أصناف الناس في الحياة ونرى أصناف الناس أيضًا في نفس الحج، كأنه تأتي الابتلاءات والاختبارات فتكشف حقائق الناس.

الحج إذا تحقق حقًا وخرج الإنسان ومقصده ربه والمال الذي يدفعه يراه تزكية لنفسه والعبادات التي يقوم بها يكون صادقًا في استحضار نفسه مع ربه وامتناعه يكون حقًا، سيأتي نموذجًا جديد من شخص قد سما بعدما حج أربعة أيام! لأن كل أركان الإسلام تجتمع في أيام محددة.

∴ ثم في الحج شأن عجيب من جهة أخرى في نفس اسم السورة:

فإن الناس وهم سائرون إلى الله في حياتهم-هذه حقيقتهم-كل يوم يسألون ربهم الصراط المستقيم، وهم يقولون لربهم: نحن نقصد هذا الصراط ونريد أن نسير فيه، ونحن حجاج مقبلين عليك نرجو أن نلقاك وأنت عنا راضٍ.

في الحج نقصد مكانًا يحبه الله، وفي الحياة نقصد رؤية الله

فيكون هذا يشبه هذا في السير، أي أن السائر إلى ربه طوال الحياة على الصراط المستقيم يقصد في نهاية الأمر أن يصل إلى أن يلقى ربه وربه عنه راضٍ ويقبله ثم يتمتع بأن يراه، والذي يحج يريد أرضًا يحبها الله، أرضًا عظَّمها الله، فالحاج حين يمشي في سيره يسير ولا يريد أن يلتفت يمنة ولا يسرة.

وأكثر شيء-كما هو معلوم لمن حج ولمن يسمع عن الحج-يخيف الحجاج: الضياع، ودائمًا تسمع أن الجماعة تأخروا ولم يذهبوا عرفة في الوقت المناسب، الجماعة تأخروا ولم يدخلوا مزدلفة! انظروا هذا الضياع ولو تنظروا إلى المنطقة خالية من الناس تستطيع أن تراها بعينك من أعلى جبل محيطة مع بعضها، لكن حين يسير الناس في داخلها كم يتوهون! انظري لهذه المساحة التي هي عدة كيلومترات، مجرد عدة كيلومترات-عند الناس-لكن حين يأتونها الناس تصبح بالضبط كأنها الحياة، هكذا الحياة بالضبط عدة كيلومترات فقط تبتدئها من هنا، هنا تنام وهنا تمسى وهنا تصبح، هنا تخرج، هنا تأتي وتنتهي الحياة!

هي بالضبط أيام منى ونهار عرفة وليلة مزدلفة ما هي إلا أيام، والناس أكثر شيء يخيفهم في هذه الأيام أن يتوهوا، هذه المشاعر بالضبط، لماذا خائفون من أن يتوهوا؟

لأنهم يقصدون، أي: يخرجون من ديارهم يقصدون مكة فيخافوا أن يتوهوا أو يضيع الوقت أو يُحبسوا، انظري كيف يكون حالنا حين نخاف أن نحبس؟! وهكذا يخاف العبد أن يحبس عن باب الله.

عندما نصل، انظر ما هو مقدار الفرح الذي يحصل عند العبد أنه وصل إلى الحرم وأنه طاف؟ يكون معه تصريح ومتأكد أنهم سيجاوزونه وكل شيء لكن أول ما يقف عند النقطة ليفتش، تأتي مشاعر الرعب أن يُحبس، فهذه المشاعر المفروض تشبه مشاعرنا ونحن سائرون إلى ربنا، نخاف أن نحبس عن بابه، نكسل عن طاعة، نكسل عن صيام، نكسل عن صلاة، نكسل عن قيام، نكسل عن وتر، وتراك محبوسًا عن الله-عزَّ وجلَّ-.

ثم إذا وصلنا يقع في قلوبنا الفرح ثم ننتهي من هذا فنطوف ونسعى على حسب النسك ونخرج من الطواف فنريد أن نصل منى بأي طريقة، نريد أن نطير ونصل إلى منى وكل مشاعرنا أننا نقصد.

انظري هذه الانتقالة "نقصد" فهكذا الإنسان في حياته يقصد الله، في رمضان يقصده بعمل، في الحج يقصده بعمل، في الشهور المعظمة يقصده بعمل، حين يذهب للعمرة يقصده بعمل، حين يتصدق يقصده بعمل وهكذا، وكل مرة يقصده بعمل، أكثر شيء يخيفه أن يتوه.

ونحن سائرون إلى الله المفترض أن تكون عندنا نفس الصورة بالضبط، نخاف أن نسير وينحرف مقصدنا، كيف ينحرف مقصدنا؟!

الحج هو القصْدُ إلى معظّم وهو الله!

لا تنس أن الحج هو القصد إلى معظَّم، والقصد إلى معظَّم يبتدئ بالقلب، هذا بالضبط يشبه حين تعبد الله، يمكن أن يحصل عند العبد انحراف عن المقصود.

انظر كيف نخاف أن نضيع عن عرفة ونضيع عن مزدلفة، يعني نبات في منى ونقول سنتحرك نذهب إلى عرفة أكثر شيء يخيفنا–إن كنا صادقين–أن نُحبس عن عرفة، حين نصل إلى عرفة نخاف نحبس أن لا نذهب إلى مزدلفة، وهكذا، نخاف أن نحبس ولا نذهب لرمي الجمرات، هذه المشاعر نخاف أن نبعد عن المقصد.

والإنسان سائر إلى ربه بالضبط هذه صورته، المفترض أن تكون هذه صورته! طوال الوقت يخاف أن يحبس عن مقصده، من مقصوده المعظَّم؟! الله، إذا كان مقصودك المعظَّم الله؛ إذًا يجب أن يبقى هذا دائمًا في قلبك وتصبح هذه الصورة للإخلاص: أن الله هو المعظَّم في قلبك، وأنت سائر تريد رضاه، وتخشى أن تنحرف في الوسط عن رضاه.

تصور كيف يضيع الناس في المناسك؟! أحد الأسباب في الضياع أن يكون الشخص الذي يحمل الراية أمامك، وأنت تسرح، وأنت تلتفت، تتكلم في الجوال، تقف هنا تحاول تستريح! ذهبت الراية، ضاع عليك الطريق!

هكذا راية النبي–صلى الله عليه وسلم–تتوه عنها بأنك تذهب يمينًا أو يسارًا أو مع هذه الجماعة أو هؤلاء يقترحون عليك عبادة لم ترد في الشرع أو أهل الأهواء يأخذونك وتسير فتضيع عن الراية؛ فيأتي الضياع الذي هو أخطر ما يكون على أي أحد عنده وقت محدد ومقصد محدد وهذه هي الحياة بالضبط.

يعني لو تأخرنا عن مزدلفة وأشرقت الشمس ذهب البيات في مزدلفة! ذهب هذا الأمر وما استطعناه!

لو مثلًا هذا الحاج لم يأتي عرفة لا أتاها ليلًا ولا نهارًا وهو ناوٍ أن يحج! إذًا انتهى ويقال له: السنة القادمة!

هكذا حياتنا بالضبط لابد في كل فترة من الحياة هناك مقاصد تامة الوضوح، أعمال نعملها نقصد بها ربنا ولا نتأخر، فالخوف الخوف أن نتأخر.

لو كانت هذه المشاعر موجودة تجاه الحياة كان الإنسان سار على الطريق المستقيم وهو في حالة من القوة المعنوية حتى لو ثقل بدنه هناك شوق إلى الله، هناك استغفار، هناك خوف من الضياع لكن الناس سائرون في الحياة وكأنهم مطمئنون تمامًا أنهم على الصراط المستقيم وهذا يضعف في وقت صلاتنا قولنا لربنا: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} والسبب أننا نشعر أننا سائرون ولا نشعر أننا نضيع لكن في الحج لأن الأشياء محسوسة–حسية–أنك ضعت وأن الناس ذهبوا إلى عرفة وأنه ليس هناك علامة وأننا في مزدلفة، لأنه هناك أشياء حسية فهناك خوف، هناك بكاء، هناك إحساس بالحزن، هناك صلاة ودعاء: دلّنا، خفف عنّا، يسر لنا! وهذا حين يكون الإنسان صادقًا في سيره للحج، فتراه أكثر شيء يخافه أن يتأخر عن

الوقت، أن يضيع وقت عرفة، أو أن يجد نفسه وقتما يدعو الناس لا يستطيع أن يدعو؛ لأنه لا يعرف أين هو أصلًا في حدود عرفة أم في خارجها...

كل هذه المشاعر التي تسمعونها وراءها حكمة من الله-عزَّ وجلَّ-لأن لو كل الناس وصلوا عرفة وكل الناس ذهبوا إلى مزدلفة وكل الناس تم حججهم بدون أي مشاكل لن تكون هناك مشاعر أنك يمكن أن تضيع، والناس حين تصير هذه المواقف يكون كل ثقلهم على الحملة، كل ثقلهم على الناس، كل ثقلهم على الأشخاص، على الوزارة، على القطار، وهذا ليس صحيحًا إنما من أجل أن تتربى، لكن شعورك أنك تستطيع أن تصل إلى الصراط المستقيم بدون دعاء ولا ابتهال ولا انكسار إنما نشعر أنه بمالنا نذهب نحج والحجة مقبولة بناءً على أننا دفعنا فيها أكثر! فهذه المشاعر كلها أصلًا مفسدات، مفسدات تشبه مفسداتك وأنت سائر في الحياة، شعورك أنك مقبول، شعورك أنك فعلت ما عليك، ورميك دائمًا للأخطاء على غيرك هؤلاء سببوا لي أن أغضب وأقول كلمة خاطئة، وهؤلاء سببوا لي أن أتكلم بالرفث، وهؤلاء سببوا لي، هذا كله ليس مقبولًا كما أنه في الحياة ليس مقبولًا أنك تكون تعرف من ربك وتعظم الله وتسير في هذا الصراط ثم تكسل عنه أو تتأخر.

في الليل هناك وظائف، في النهار هناك وظائف، في الأماكن هناك وظائف...

- إذا لم تأخذ كل الوظائف إذًا أنت تائه.
- إذا لم تسر على الصراط المستقيم إذًا أنت تائه.
- إذا لم تعرف سنة النبي-صلى الله عليه وسلم-في كل شيء إذًا أنت لا تنظر إلى راية.

وهكذا بالضبط هذه الصورة كاملة.

إذًا فهمنا أن الحج-اسم السورة-: القصد إلى معظَّم هو نفسه بالضبط صورة الحياة، نحن سائرون نقصد الله على الصراط المستقيم، حين يأتي الحج يصبح كأنه الصراط المستقيم موقع جغرافي، والصراط المستقيم في حياتنا ليس حسيًا إنما معنويًا، فهذا الصراط المستقيم المعنوي يصبح في لحظة في الحج عبارة عن حسيّ، وسنلاحظ علاقة بين الحسيّ والمعنوي أن كلا الطريقين مبنيان على الامتثال، ليس هناك اقتراحات أبدًا.

نفترض واحد سائر على قدميه ويذهب من عرفة إلى مزدلفة، والخريطة تقول له: من هنا، لكن هو يقول: فلنجرب هذا الطريق! فماذا سيحدث في النهاية؟! سيضيع! لابد أن يضيع، أو يأتي يقول: أجرب أن أفعل هذا الفعل، بدلًا من أن أرمي سبعة أرمي ثمانية، بدلًا من أن أرمي فقط جمرة العقبة في يوم العيد أرمي الصغرى والكبرى بالمرة! نقول: لا، لا يقبل منك وتصبح مبتدعًا وتصبح خرجت عن الصراط المستقيم ويصبح حجًا ليس مقبولًا لأنك اخترعته، بالضبط هكذا حين يكون الإنسان سائرًا ولا يفكر في امتثال الأوامر إنما يفكر أن يتقرب كما هو يريد وليس كما ربنا يريد.

في الحج أنت لا تستطيع أن تجلس في مزدلفة والناس في منى أبدًا، إنما الناس في منى أنت معهم في منى، الناس في عرفة أنت معهم في عرفة، الناس في مزدلفة أنت معهم في مزدلفة، الثلاثة أيام يجلسونها في منى تجلس معهم، يرمون الجمرات في الثلاثة

أيام ترميها في الثلاثة أيام، قبل أو بعد هذه المساحة المفتوحة لا بأس لكن المقصد أن هذه الأعمال هي التي يجب عليك أن تعملها.

فمن قصد الله وهو معظم لله فيمتثل أمر الله، مثلما نمتثل أمر الله في الحج، انظر كم يكون الناس دقيقين في الحج–وهذا مما يشكرون عليه–فتجدهم يسألون: ماذا نفعل، كم حجم الحصى وقتما يرمون، ما حكم البيات في مزدلفة؟ وكثير من الناس يحبون أن يكملوا ما عليهم من الأعمال ويحبون أن يعرفوا ما الدعاء المحبوب، فهذه الدقة في الحج صورتها في الحياة أن لا تخطو خطوة إلا وقد كانت على الصراط المستقيم، لا تفتِ نفسك فتوى تذهب بدينك! لا تدخل في بيع وشراء لا تدري هل هو ربا أم حلال، لا تعالج بشيء ولا تدري هل هو شرك أم توحيد، وهكذا إلى أن يتم للإنسان أن يخرج من الحياة على الصراط المستقيم.

مما نلاحظه أيضًا في الحج مقابل الصراط المستقيم أن الحج أيام معدودات والحياة تشبهها، الفوارق الشاسعة بين الناس في الأيام التي نراها طويلة بالضبط مثل قوم تعجلوا وقوم تأخروا، يعني كأن ليس بينهم إلا ليلة ويوم فقط، مهما طالت الأعمار ما بينهم إلا هذا اليوم، فإذا أطلت جدًا ستزيد عن الناس بيوم، وهذا اليوم اجعله عشر سنين، اجعله عشرين سنة، لكن في النهاية لابد أن تخرج من مِنى، لابد أن تخرج من الحياة...

الحج أيام معدودات والحياة تشبهه

والذي رأى المشهد حين يخرج مِن مِنى سيكون بالضبط هو حقيقة الحياة لأنه أول ما يخرج الناس من مِنى، يقلعون خيامهم وتصبح مِنى–بعدما كانت فيها الأعداد والطعام والشراب والناس طوال ثلاثة أيام–لا شيء، اليوم يكون هذا المخيم مبني وهذا المخيم مبني، ولا يخرج من ذاك اليوم إلا وقد هد كل شيء! وترجع مِنى إلى صورتها الأساسية وهكذا بالضبط الحياة سَيدُك الله–عزَّ وجلَّ–هذه الأرض دكًّا لا يوجد فيها عوجًا ولا أمتًا أبدًا، كل شيء متساوٍ، فالناس الذين كانوا يتفاخرون على غيرهم نحن في مخيم كذا يصبح ولا شيء، كله ذهب، مجرد زينة زائلة ستصبح متساوية في لحظة.

فالمقصد أن هذه الصور كلها تجعل الحج له عظمته في النفس سواء حججت أو لم تحج، الحياة صورة من الحج، طبعًا الذي يحج ويشعر بالمشاعر الحقيقية التي تنقله إلى الحياة سيكون موقفه مختلف عن من لم يشعر، لكن لو حركت قلبك؛ ستفهم أننا نسير على الصراط المستقيم الذي يشبه صراط الناس السائرين إلى ربهم في الحج.

يبقى علينا شيء مهم جدًا أن نفهمه: أن الحج قصد إلى معظّم، وإذا ما كان هذا الأمر واضحًا يعني إذا قصدت لكن ليس إلى المعظَّم ماذا يحصل في الحج؟! ترى سفيه، ترى هذا الشخص الذي لم يعظم ربه في كل المواقف سفيه، أصلًا لماذا تحصل مواقف؟! ما السبب في المواقف؟!

نقول: الحج بالضبط يشبه الحياة لا يمكن أن يكون على ما تحب ويأتي بما تريد! بل لابد من بلاء يجره بلاء، والناس الذين يذهبون إلى الحج بتكرار، الله-عزَّ وجلَّ-ينوع عليهم أنواع البلاءات كل سنة بصورة: سنة يكون أصحابهم بلاءهم، سنة تكون نفوسهم بلاءهم ووسواسهم والشيطان، وسنة يكون وسنة يكون...

لذلك مما يميز الحج أنه لا يشبه رمضان والشياطين ليست مثل رمضان مصفَّدة إنما هي منتشرة، وأيضًا في الحج هناك مشكلة أخرى بعد شياطين الجن، أن هناك شياطين الإنس فتجتمع عليك الصورة الحياتية الحقيقية أن هنا بلاء وهنا بلاء وهنا ينقص عليك ماذا تفعل في البلاءات؟! إذا بقيت تقول: هذا فعل وهذا اعتدى وهذا يستحق أن أرد عليه وهذا يستحق أن أدفعه وهذا دفعني أدفعه وهذا أخذ مني أأخذ منه...إذًا أنت راسب راسب راسب في كل الاختبارات!! لا يحتمل الحج ذلك أبدًا، ولابد طوال الوقت أن تقول: إن الله عظيم في نفسي؛ ومن أجله سأحبس نفسي، من أجله لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، تحبس نفسك من أجل العظيم.

فتصور الصورة: الأربعة أيام أنت تقول: هي كلها أربعة أيام ولن تعيش معه طوال العمر، هذا الذي جالس بجانبك أو الذي فوقك أو الذي هنا أو من قابلته لن تعيش معه طوال العمر، تقف تصلي في الحرم مثلًا أو تطوف ويأتي أحد يجاورك ويؤذيك أو امرأة تدفعك، فقط هذه اللحظة التي تمر عليك فيها تشبه ساعات أو أيام أو سنين لأحد يمر عليك وسينتهي! مثلما يحصل في الطواف، انظروا كيف في الطواف لا نبقى بجانب أحد إلا الذين نمسك فيهم، مثلًا حين يكون والد وأبناؤه يمسكون في بعضهم، وأيضًا يمكن أن يضيعوا، لكن الذين يطوفون حولك ميزتهم أنهم يتغيرون، فلو تريد أن تعادي هذا وتجري وراءه لتؤذيه لأنه آذاك وهذا الآخر فعل لك كذا وهذا تنظر له وهذا تتأكد منه...إذًا ذهبت الحياة، في الصورة ذهب الطواف وفي الحياة ذهبت الحياة، فأنت تقول: هذا بيت الله لا أكون سفيهًا فيه.

وهكذا بالضبط وأنت في الحياة، الرحلة إلى الله! فلا تكن سفيهًا تشتغل بغير أنك في بيت الله، بغير أن قدماك قد وطأت مكان وطئه الأنبياء، لا تفكر في غير هذا، من تعظيم البيت الحرام، ومن تعظيم ما عظَّمه الله-عزَّ وجلَّ-يقع في قلبك أنه عيب أن الله ينظر إلى قلبك وأنت مشتغل بالخلق، عيب أن ينظر الله إلى قلبي وأنا أريد أن أأخذ حقي من فلان وعلان، كله عند الله، وتصبح هناك طمأنينة في القلب أن هؤلاء الذين حولك فقط يمرون عليك وهكذا الناس حولك فقط يمرون لحظة الاختبار.

لحظة الاختبار هذه-تصوروها بهذا الشكل-أنك سائرة وجاءت هذه الحاجَّة ودفعتكِ وأنت إلا تدفعيها مثلما دفعتك! فتحاولين أن تسرعي لتصبحي في صفها، هكذا بالضبط حين تأتينا البلاءات في الدنيا هذا آذاني فأركز معه فماذا أفعل؟! أسير بنفس سرعته في الدنيا فيبقى البلاء عليّ وأنا كان يمكنني أن أخففه على نفسي بألَّا أركز معه وأطلب من الله أن يغفر له ويغفر لي ثم سيذهب وينتهي، مثلما يطوف الناس ويبتعدون عنك بالضبط هذه البلاءات في الدنيا تطوف عليك وتبتعد عنك.

الحج يشبه الحياة من جهة السعي

هذا الحج يشبه الحياة من جهة السعي، انظر كيف أن الناس سعيهم في السعي شتَّى! هذا يتكلم في جواله وهذا عصبي وهذا متثاقل وهذا سرحان وهذا تعبان وهذا مركز ماذا يفعل وماذا يقول، فتخيل كيف سعيهم شتى في السعي والناس أوضاع مختلفة واليوم هذا يتكلم في جواله وهذا كسلان فتري صور واضحة تمامًا بأن سعيهم شتى والحياة تشبه هذا السعي كل الناس سعيهم يختلف على حسب حالهم وحضور قلبهم ونظرتهم للحياة.

إذًا كيف تتصور الحياة؟! الحياة تشبه هذه السبعة أشواط طوال الوقت تنكسر وتسبح وتذكر الله وسيأتيك هذا وسيأتيك هذا وستطول عليك المسافة وهنا تسرع وهنا تبطئ وهنا تنزل في بطن الوادي وهنا ترتفع وهنا تكون على الجبل، هكذا الحياة بالضبط، تخيلوا معي (المَسعى) ما صورة المَسعى؟! جبل ثم وادٍ ثم جبل مرة أخرى ثم تعود فتنزل إلى الوادي هكذا فقط، وهذا الذي نتصوره بسيط، كأنه يصور سعي الناس في الدنيا.

فالمقصد الآن أن الحج عمل لو نظرت إليه بتحليل رأيت بالضبط الحياة.

المقصد أن هذا الاسم حين سميت به السورة له دلالات عظيمة وخصوصًا لو نظرت جيدًا كيف وقعت هذه السورة بين سورتين: بين سورة الأنبياء وبين سورة المؤمنون.

أما الأنبياء فقد اتفقوا جميعًا على الحج، اتفقوا جميعًا على هذا النسك؛ ولذلك حين يأتينا –إن شاء الله– في الأسبوع القادم الكلام عن إبراهيم –عليه السلام– سنرى كيف أن إبراهيم نادى واتبعه كل الأنبياء في ذلك، فلما جاءت سورة الحج تقول: وكلهم دعا إلى التوحيد وكلهم دعا إلى الحج.

ثم تأتي سورة المؤمنون بعد سورة الحج خصوصًا أننا نجد خاتمة سورة الحج تنادي المؤمنين:

{ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ستتبيَّن لنا –إن شاء الله– العلاقة بين سورة الحج وسورة المؤمنون وسورة الأنبياء.

نبدأ الآن بمطلع السورة، سنقف فقط وقفات على السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}

ابتدأت السورة بنداء الناس: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} وجاء الأمر بالتقوى، لكن انظروا بداية سورة الأنبياء: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ} ثم أتى بعدها في سورة الحج خبر عن الساعة، جاء خبر عن زلزلة الساعة وأن زلزلة الساعة شيء عظيم ثم أتى أخبار عن تفاصيلها، فقط نرى مطلع سورة الأنبياء لنتصور الأمر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ}

في سورة الأنبياء التي هي قبل سورة الحج أتى الخبر: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ} ما حالهم؟ {وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ} فهذه الغفلة سببت لهم الإعراض {وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ} هل لا تأتيهم النذر، لا تأتيهم الآيات؟ لا، بل تأتيهم {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم} ما صفته؟ {مُّحْدَثٍ} الذكر (محدث) أي: جديد، مجدد، يجدد لهم التذكير، ما ردهم؟ {إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} ما حال قلوبهم؟ {لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ} إذًا لاهيةً قلوبهم ولاعبة أبدانهم، مع أن الذكر يأتيهم ومع اقتراب الحساب، فماذا نفعل مادام اقترب للناس الحساب؟! {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ} جاءت كلمة الناس وجاء في أول الحج {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ} يعني مادام اقترب الحساب لا تكونوا من أهل الغفلة، لا تكونوا من أهل اللعب، لا تكونوا من أهل اللهو، لا تلهو قلوبكم وتلعب أبدانكم، وكلما جاءكم ذكر يذكركم بلقاء ربكم كان موقفكم أن تعاملوه باللعب وتعرضوا عنه.

ونحن اليوم كل يوم هناك ذكر محدث لنا، فإذا نظرنا للشمس التي تولد كل يوم صباحًا وتموت كل يوم في نهاية اليوم، وإذا نظرنا للقمر يولد في بدايته ويموت في نهايته ثم إذا نظرنا للأكثر والأقرب حسًا وهم الموتى الذين يموتون حولنا، كل هذا ذكر محدث، كل يوم يقال لنا: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ} إلى درجة أننا بنفسنا نعيش مواقف نكون آمنين في سيارتنا–اسأل الله أن يؤمّن الجميع ويؤمّن المسلمين–نكون في سيارتنا سائرين ولا نجد إلا قد حصل حادث أو حصل كذا من الأمور، في لحظة إذا ما قلت: (لا إله إلا الله) انتهى الأمر ثم ينجيك الله ويخرجك الله فهذا ذكر محدث؛ لتتذكَّر لقاء الله، فلا تقابل الذكر المحدث بالإعراض! إنما قابله بالتقوى، تجد نفسك كدت أن تهلك ثم ينجيك الله، فقابل ذلك بالتقوى، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ} وما الذي يدفعكم للتقوى؟! أن تكونوا مؤمنين، أن تكونوا مصدقين، أن تكونوا متيقنين، بأي شيء؟! بما ستلقونه، بما سيكون حقًا موجودًا.

هذا الجزء الثاني الذي سنتكلم فيه: أن أزمتنا الحقيقية فيه أن ما نسمعه دائمًا معرفة، مجرد معارف نسمعها لم تبلغ في قلوبنا لا علم اليقين ولا عين اليقين ولا حق اليقين فلا نراه؛ ولذلك في سورة التكاثر الله–عزَّ وجلَّ–يقول: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} أي: يبقى يلهيكم ويلهيكم حتى تصلوا إلى المقابر ثم يقول لنا في آخر السورة: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ

(٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} لا تكفي أن تكون معلومة أن نأتي نناقش مثلًا قول الله–عزَّ وجلَّ-: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ} هذا الكلام كله مفهوم في أصله أنه سيأتي وقت ستذهل عن كل شيء، نحن في المواقف البسيطة نذهل عن كل شيء فكيف حين يأتي هذا اليوم كل شيء تذهل عنه ولن تفكر إلا في نفسك، اليوم تجري وراء فلان وتجري وراء محبة فلان وغدًا لن تفكر إلا في نفسك فقط لكن لا تجعل الوقت المناسب يفوت، الوقت الذي تفكر فيه في نفسك فقط!

أزمتنا الحقيقية أن الحقائق التي نسمعها تقف في عقلنا على حد أنها معرفة ولا تبلغ قلوبنا

هذا الكلام الذي نسمعه بدون الدخول في تفاصيله معروف عندنا، معروف عند الناس أن يوم القيامة سيكونون فرادى ويلاقون ربهم ولا أحد ينفعهم لا شفيع ولا صديق حميم ولا أحد ينفع أحد ومع ذلك نعيش المواقف والأحداث بالضبط في الثلاثة كلمات التي ذكرت في سورة الأنبياء (معرضون، لاهية قلوبهم، يلعبون)!

والسبب في هذا كله: أن الحقائق التي نسمعها تقف عندنا في عقلنا على حد أنها معرفة كأننا نتثقّف، كأن أحد يقول لك: في الفضاء هناك كائنات كذا وكذا! كأنه كلام بعيد عنا، فنحتاج أن نرد قلوبنا ونحتاج أن نفكر ونفكر، نحتاج أن نغير همومنا ما الذي يهمّنا؛ ولذا كلما سمعت هذه الأخبار لابد أن تفكر في الأحوال، لابد أن تفكر بشريط واضح تمامًا ماذا سيكون حين يأتي الملك، متى سيأتي مجهول، لكن ماذا سيحصل حين يأتي إما ملائكة رحمة أو ملائكة عذاب، وهذه ما يجب أن يهمني ويشغلني وأفكر فيه، وكيف تأتي ملائكة بمقدار الأفق يكونون، وكيف حين تقبض الروح إما تقبض بيسر وسهولة وإما يحصل فيها كذا وكذا... كل هذه الحقائق تحتاج أن تكون محل للتفكير، تشغل القلب، إلى أن يتعايش الإنسان هذه الحقائق فتؤثر عليه لكن الناس ماذا يفعلون؟! سنسمع الآن كيف ينقسمون إلى أربعة أقسام.

سنقرأ آية 3 و4، وآية 8، وآية 11، وآية 14.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ}

أمام الأمر بالتقوى الذي أتى قبله ذكر محدث والناس يسمعونه ماذا يفعل الناس أمام هذا التذكير، أمام الأمر بالتقوى؟!

بدأ الصنف الأول، الصنف الأول: **يجادل** حين تقول له: تذكَّر ما سيكون بعد هذا، حين تكون في هذا الموقف ليس هناك رجعة، ليس هناك ارتداد إلى هنا، ليس هناك حل، اتقِ الله من أجل أن ينجيك الله.

فصنف يجادل لكن ليُعلم أن هذا لم يجادل من منشأ نفسه إنما هذا يجادل وهو يتبع أحد ولذلك سنرى صفته، يقول الله–عزَّ وجلَّ-: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ} أي: يجادل في لقاء الله، يجادل في عقوبة الله، يجادل في أوامر الله، يجادل في

أمر الله بالتقوى، يجادل وهو يجادل هل يفهم ما يقول؟! الجواب: لا؛ لأن الله-عزَّ وجلَّ-يقول: {بغير علم} أي: يأتي لأي معصية من المعاصي التي يحبها ويهواها ويقول: الأغاني ليست حرامًا، لماذا؟! يقول: أنا أرى أن الأغاني ليست حرامًا، أنا أرى هذا، هكذا من عندك؟! نعم، من عنده أخذ قرارًا! إذًا يجادل بغير علم ويكلمك وهو أصلًا مشكلته الأساسية أن هذا هواه ولذلك يجعله الموضوع الرئيس في الحياة وإلا أنت أصلًا لم تأتِ تقول له: هذا حرام وهذا حلال، لم تأتِ تقول له، إنما هو يبدؤك بالجدال لأن الاستسلام الذي هو أصل الدين ليس موجودًا، فمادام الاستسلام الذي هو أصل الدين ليس موجودًا، يجادل.

واضحة جدًا هذه الصورة في الحج، نأتي نقول للحاجّة مثلًا: "سنستيقظ غدًا قبل الفجر بساعة لتجمعوا أغراضكم ونذهب إلى عرفة". تقول: "لماذا ساعة؟! نقوم قبل الفجر بنصف ساعة!" فنبدأ الآن في الدنيا يخاصموننا ويجادلوننا! إلى أن نصل نقول: "الأولى في مزدلفة أنك لا تتكلمي وتنامين من الليل ما تستطيعين نومه" الأول كان في الدنيا والآن في أمر الشريعة، تقول: "لماذا ننام وهذا ليس وضع يسمح بالنوم وربنا لم يشدد علينا...!"

وكلما تكلمنا في شيء تجادل، الآن هل هذه تجادل من نفسها؟! سنجد صفتين، هذه صورة في الحج وصورة في الحياة:

الصفة الأولى: أنه بغير علم.

والصفة الثانية: أنه يتبع كل شيطان مريد، كأنه هو بنفسه ليس من أجل الجدال ويأتي أحد يدربه على أن يجادل في كل شيء، هذا حين يعترض لا يريد أن يعترض إنما فقط يقلد، فهو يتبع كل شيطان مريد.

هذا الشيطان المريد لا يقصد به هنا شياطين الجن إنما أصلًا يقصد به شياطين الإنس الذين يخرجون مثلًا في الإعلام وفي وسائل التواصل فيعترضون على دين الله.

شخصين: المجادل والشيطان المريد، ماذا يفقدون وما علاقتهم بالحج؟!

يفقدون تعظيم الله، وفقدانهم لتعظيم الله يؤدي إلى عدم الاستسلام، وإذا ما استسلموا ما صورة عدم الاستسلام؟! الجدال.

ولذلك بني إسرائيل في سورة البقرة ماذا فعلوا حين أمروا أن يذبحوا البقرة؟! جادلوا، ما استسلموا فكانوا نموذجًا إلى قيام الساعة أن هذا الذي يجادل حاله الحقيقية أنه لم يستسلم لله-عزَّ وجلَّ-.

تصوّر الحاج الآن؛ الحاج وغير الحاج، غير الحاج مع دين الله والحاج مع الحج: إذا لم يستسلم في تشريع الله ولم يستسلم حتى في دنياه لما خطَّه القوم ماذا يحصل؟! سيجادل ثم لابد أن يتوه، لابد أن يفقد قلبه، لابد أن لا يصل إلى حج.

ولذلك من الممنوعات في الحج الرفث والفسوق والجدال، ولماذا يصبح ممنوعًا في الحج؟!

ليصبح سمتك الطاعة لله، ليكون الاستسلام طريقك، وأنت أصلًا الدين الذي تدين به اسمه الإسلام، فما المطلوب منك؟! الاستسلام، هذا الاستسلام فقده الناس مع جهلهم، يعني جاهل وغير مستسلم، ماذا تتصور من جاهل غير مستسلم؟!

مثل الطفل الصغير الذي لا يفهم أي شيء في الحياة ويأتي يقول لك: المفترض تفعل كذا المفترض أن لا تفعل كذا! فماذا يكون موقفك من طفل صغير لا يفهم الحياة ويأتي يقول لك: المفترض تفعلين كذا وتتركين كذا؟! أكيد أنك تعتبرينه سفيهًا لأنه جمع بين أمرين: جمع بين الجهل والكلام في شيء لا يفهمه.

إذًا الناس في الحياة وفي الحج سواء هناك صنف كبير وقاعدة عريضة لا تستسلم إنما تجادل، معها علم وهي تجادل؟! ليس معها علم!! وتجادل في الله، ما معنى أنها تجادل في الله؟! يعني تجادل في شرع الله، تجادل في لقاء الله، تجادل في استحقاق الله في الانكسار والذل والخضوع، تجادل في ذلك، إلى أن بلغنا للأسف الشديد أنهم يجادلون في وجود الله!

وطبعًا هذا وحده كاف لنعرف حجم المشكلة، وكيف أن الجدال بدايته رأي في الشرع ونهايته نبذ الشرع، لابد أن ينبذ الشرع، وما أصبح بني إسرائيل مغضوب عليهم إلا حين بدؤوا بالجدال.

وهناك فرق كبير بين الجدال والمعرفة، فرق كبير لكن المشكلة أنهم تمرنوا على يد مجادلين فانتهى الأمر أنهم يعتقدون أنهم يسألون وهم في حقيقتهم يجادلون في الدين، فهناك فرق كبير بين واحد يقول: اقنعني لماذا أرمي سبعًا، اقنعني لماذا أطوف حول الكعبة سبع مرات؟ وبين واحد يقول: من المؤكد أن هذه السبعة التي نطوفها لها أثر في حياتنا ولها صورة...فتقول له: أنت مؤمن أن الله حكيم هنا مطلوب منك أن تستسلم لحكمته فيقتنع لأنه هو أصلًا سأل وهو مؤمن بعظمة الله.

ولذا الحج قصد إلى معظَّم، والحياة تشبهه تمامًا أنك في حياتك تسير إلى معظَّم، إلى عظيم، المطلوب منك أن تستسلم في طريق السير

الحج القصد إلى الله العظيم، المطلوب منك أن تستسلم ولا تجادل في شرعه

المشكلة الأولى أن هناك واحد يجادل وهو لم يعطَ جدلًا، يعني هو بنفسه لم يعطَ قوة على الجدل إنما يرسلون له مقطع من دقائق أو من ثوانٍ يسمع كلمتين ولا يفهمهم فيحملها ويتكلم، ويكون مجلس طويل عريض الناس فيه من أهل الدين والصلاح والإيمان ثم نأتي نقول: هجرنا سنة النبي–صلى الله عليه وسلم–، علينا أن نقرأ سنة النبي–صلى الله عليه وسلم–، علينا أن نهتم بسنته ونقرأ صحيح البخاري ويأتي واحد صغير لا يفهم شيء يقول: لكن صحيح البخاري ليس صحيحًا ولا ينسب للنبي–صلى الله عليه وسلم–!! من قال لك إنه ليس صحيحًا؟! فيدور ولا يعرف من قال له أصلًا! لكنه التقطتها مثل الجرثومة دخلت إلى قلبه وأصابت فؤاده وهو لا يدري أنه مريض، ويتكلم به وهو لا يشعر أنه قد أجرم في حق دين الله!

كيف تظن أن الله لا يحفظ سنة النبي صلى الله عليه وسلم!

وكيف تظن أنه لا يقيض رجالًا لها!

وكيف تظن أن جزءً من دين الله يضيع! كيف تظن ذلك!

الشاهد أن من جادل في دين الله تبعًا، فقد نقض أهم عُرى الإسلام؛ لأن الإسلام هو الاستسلام.

غالب هؤلاء يُشفق عليهم الحقيقة لأنهم جهال ويتبعون ويمكن أكثر شيء والديهم والمجتمع المحيط يتحمل مسؤولية تركهم لهؤلاء المجادلين، واليوم أصبح الجدال ثقافة-على تعبيرهم-وأصبح الحوار ويتكلمون في كل شيء الذي يعنيهم والذي لا يعنيهم والذي يفهمونه والذي لا يفهمونه يتفلسفون فيه! أصبحت هذه الشابة المثقفة أو الشاب المثقف هو الذي له رأي في كل شيء يفهمه أو لا يفهمه، وهذه كلها ثقافة من خارج ديار المسلمين، هذه جرثومة دخلت على عقول المسلمين، والحقيقة أن المسلم إذا أمره الله قال: سمعًا وطاعة.

ألا نسمع هؤلاء الكرام كما وصف الله-عزَّ وجلَّ-في أخر سورة البقرة: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ} ما وصف هؤلاء المؤمنون؟ وصف هؤلاء المؤمنون أنهم آمنوا بالله وبكتبه وبرسله ثم أهم شيء {وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}، هؤلاء إذا ما عللت لهم ما قال: سمعنا وأطعنا، وإذا عللت له طعن لك في الدين والدين لا يحتمل أن كل شيء يعلل والأصل أن تعبده بالاستسلام.

قال الله-عزَّ وجلَّ-: {كُتِبَ عَلَيْهِ} كتب على مَن؟ يعني الله-عزَّ وجلَّ-قدَّر على هذا الشيطان أن يُضلّ كل من اتبعه، فمعنى ذلك أن الإنسان لو ترك نفسه لهذا الشيطان لابد أن يضله {أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ}.

وأيضًا {وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ} ونحن نريد أن نهتدي إلى الصراط المستقيم وطوال الوقت نقول: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} هذا الصنف الأول الذي يجادل تبعًا، ليس رأسًا إنما هو يتبع كل شيطان مريد.

تصور هذا الشيطان المريد مَن هو؟ يكون هؤلاء الإنس الذين في الإعلام، الذين يأتون إلى دين الله ويطعنون فيه، يأتون إلى حقائق الإيمان ويطعنون فيها، يقولون لك: لابد كل شيء أن تمرريه بعقلك، كأن العقل أداة للحكم على الشريعة! والعقل أداة لاستقبال الشريعة وليس للحكم على الشريعة، وهم بنفسهم في دنياهم إذا مروا بتجارب أخذوا نتائج التجارب وجعلوا عقولهم تحكم على النتائج لكن ليست عقولهم تقول النتائج إنما عقولهم تحكم على النتائج.

إذًا العقل دائمًا يستقبل النتيجة فالشريعة حين تأتيك تستقبلها، وُجد عقلك من أجل أن يعقلك عن الخطأ من أجل أن تصل أن تتقي الله؛ ولذلك في سورة الفجر: {هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ} يعني يحجره عن الخطأ، يمنعه عن الخطأ بعدما يعرف الحقائق، الله يخبرك ما هي الحقائق التي تغيب عليك وأنت تجعل عقلك يحجرك عن الخطأ؛ ولذلك العقل السليم هو الذي حين يأتي في المواقف يتقي الله، لا يجادل في تقواه إنما يتقي الله.

هذا الصنف الأول، باختصار الصنف الأول ما صفته؟

يجادل وهو متبع، يتبع كل شيطان مريد.

والآن سيأتيني وصف الشيطان المريد في آية 8 و9 و10.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}

نرى صفاته: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ} إلى هنا يشبه الأول، لكن هذا: {بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} ما الفارق؟

الفارق أنه ادّعى أن عنده علم، ادّعى أنه ممن يعرف الحقائق، ثم تجد أنه بغير علم ولا مهتدٍ بهدي ولا هناك كتاب منير يدله إنما فلسفة وآراء الناس وأفكارهم وآراؤه ولا هو يرى ولا يرى مثله من الخلق، وفي لحظة يقارن بين كلام قاله الله أو كلام قاله النبي-صلى الله عليه وسلم-وبين كلام قاله فلان وعلان ويرجح بينهم وممكن يأتي في الأخير يقول وكلام الله أصوب!

أصلًا من بداية الأمر كيف تتصور أن تقارن بين كلام الله وكلام رسوله وبين كلام هؤلاء، حتى لو صوبته!

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل أن السيف أمضى من العصا!

كيف أصلًا تقارن بين السيف والعصا؟! كيف يقارن الناس بين كلام الله وكلام غيره!

فعدم تعظيم الله في القلوب وعدم قصد المعظَّم-سبحانه وتعالى-سبّب أنّ الإنسان يلوّث فكره بأي أمور، بأي كلام يسمعه، انظر كيف حين واحد يقارن بين الله الشافي وبين الحلقة التي ممكن أن يلبسها أو الخيط الذي يمكن أن يلبسه! هذه كلها أهوال حقيقية تدلّ على عدم تعظيم الله-عزّ وجلّ-.

على كل حال، هذا صفته أنه {يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} ثم أنه له صفة نفسية خطيرة، وهذه الصفة النفسية من تأمّل وجدها مباشرة، أنه ما به؟

{ثَانِيَ عِطْفِهِ} ما معنى (ثاني عطفه)؟! أي: يلوي عنقه تكبّرًا، يقول: لا تناقشني، أنا أفهم، لا تكلمني، أنتم مساكين لا تفهمون! وأكثر صفة واضحة فيه أنه يرى نفسه أفهم من الخليقة، ثم يخرج لك من التراث ويخرج لك من كلام العلماء السابقين ويقول لك: البخاري قال كذا ويُرد عليه، والطبري قال كذا ويُرد عليه! يعني هو الفهيم وأن هؤلاء كلهم هذه ثغراتهم وهذه عيوبهم وهذه أخطائهم، ونحن لا نقول إنهم معصومون، إنما كل الخلق يخطؤون، لكن مَن عدّ خطؤه كان دليل فضله.

المقصد أن هذا المتكبّر يرى نفسه أنه فهيم، يرى نفسه أنه يستطيع أن يقدر الأمور، يرى نفسه أن كلمته يجب أن تسري على الناس وأن الذي لا يطيعه ضال، وبذلك يكوّن في نفوس الناس حزبية له، فيستنصرهم لنفسه، ويكوّن له شعبية بحيث ينتصر الناس لرأيه ويدفعون كلام العلماء.

فهذا يجمع بين صفات:

أولًا: أنه يجادل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

والأمر الثاني: أنه مع عدم استسلامه، في حالة من الكبر ويصوّب نفسه ويخطّئ أي أحد آخر.

وهذه الصفة للأسف الشديد موجودة عند ناس كثيرين أنه الصواب وأي أحد يخالفه خطأ، يعني ليس هناك أمر ثانٍ ولا الأمر واسع ولا نناقش الموضوع ولا أي شيء، يطالبك بالحوار يطالبك أن تسمعه ويمتنع هو أن يسمعك، وأي أحد يخالف رأيه يصبح عدوه!

وهكذا وهكذا إلى أن تجد المجتمع قد انقسم وتحارب فيما بينه بناء على ظهور مثل هؤلاء في المجتمع.

الله–عزَّ وجلَّ–ذكر هنا وعيدًا لهذا الذي يجادل بغير علم ومتكبّر، في مقابل أن الأول الذي يجادل وهو متبع لله–عزَّ وجلَّ– عرض عليه الحقائق، يعني حين نرجع للآيات الأولى سنجد أنه بعدما ذكر الصنف الأول عرض عليه الحقائق: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ} عُرِضت عليه الحقائق، في مقابل الصنف الثاني لم تُعرض عليه الحقائق إنما أخبر أنه: {لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ}.

والسبب أن فيه صفة تشبه صفة إبليس وهي الكبر، فإذا وجد الكبر أي موعظة لن تأتي بنتيجة.

هكذا أنت تقابل في الحياة وتقابل في الحج، أشخاص لا يعظمون الله في نفوسهم إنما نفوسهم هي العظيمة في نفوسهم، أهم شيء نفسه، وهذا كأنه يمثل صورة الذي اتخذ إلهه هواه، هو العظيم إذا قال القول لا يثنيه، إذا قال رأيه في مسألة لا يثنيها، لكن عندك علم أو تفهم؟! يقول لك: أنا فلان الفلاني، أنا حاصل على كذا ويأتي بكل الحروف التي قبل اسمه ويقول لك: أنا كذا وبحثت في كذا، ويمدح نفسه ويمدح نفسه (كالبالونة) في الانتفاخ!

هذه المشاعر الخطيرة اليوم بعدما كان في الزمن الماضي يستحي الناس أن يتكلموا عن أنفسهم، اليوم الناس يتدربون أن يتكلموا عن أنفسهم ويتدربوا كيف يعرضون سيرتهم الذاتية! لا يخرجون على الناس إلا بعدما يقومون بعمل قائمة بقدر الجدار أنه درس وتعلم وجاء وفعل... فهذا كله عبارة عن كمية أمراض مختزلة في قلب صغير، وهؤلاء حتى ليسوا مثل الصنف الأول في كون أن الله وعظهم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ} وعرض عليهم الأمر إلى أن وصلنا إلى: {ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ} كل هذا عرض على الصنف الأول الذي جادل وكان متبع ليرجع عن اتباعه لكن الصنف الثاني مباشرة هدد والسبب: الكبر، الكبر مرض إذا أصاب الإنسان لا يصلح لا للحياة ولا للحج خاصة.

ولذا واحد من الاختبارات الكبيرة الخطيرة في الحج وتظهر هنا في سورة الحج بسبب السجود وبسبب وصف المخبتين، واحد من الاختبارات الكبيرة الخطيرة في الحج وفي الحياة (الكبر)، الخطر الخطير، والنبي–صلى الله عليه وسلم–وصف الكبر وأخبر أنه: ((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ)) قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ

حَسَنَةً، قَالَ: ((إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ))[1] ذرة من كبر كافية لعدم الاستسلام، والنبي–صلى الله عليه وسلم–وصف الكبر ما هو؟

((بَطَرُ الْحَقِّ)) أي رد الحق، متكبر في هذه الجهة بالذات، وبعد ذلك يأتي ((وَغَمْطُ النَّاسِ)) يعني لا يعطي الناس حقوقهم، لكن الأخطر من ذلك كل حق يعرض عليه إذا لم يتبناه هو أولًا يصبح ليس حقًا إلا إذا هو تبناه.

مثلًا افترض في زكاة الحليّ، هناك رأيين واضحين عند العلماء رأي يقول: مادام ملبوس إذًا ليس عليه زكاة، ورأي يقول: النبي–صلى الله عليه وسلم–أخذ من المرأة الذي كانت تلبسه وقال كذا وكذا وقال حتى لو كنت تلبسينه عليه زكاة، هذان رأيان، افترض أنه تبنى رأي أن عليه زكاة، القضية ليست الرأي الأخف والأصعب، لا القضية أنه تبنى أنه عليه زكاة، فيصبح كل تفكيره أنه يجب عليكم أن تزكوا، وإذا لم تزكوا أصبحتم عصاة وتدخلون النار وتفعلون! لا يسمح حتى أن تقول إن هناك رأي ثانٍ، عندما تقول: هناك رأي ثانٍ؛ يرد الحق، يرد أن هناك رأي ثانٍ ولا يسمح بالنقاش أبدًا، عندما يتبنى الفكرة مباشرة يحكم بها. ليس شرطًا أشد أو أقل شدة، القضية ليست هنا، إنما القضية أنه ما دام تبنى هذا الرأي؛ انتهى! يردّ أي شيء آخر من الحق.

ومن أجل ذلك هؤلاء لو قادوا الأمة ذهبت الأمة للهلاك! لأنهم لا يقبلون أبدًا، هناك جماعة يقولون: أنا أرى أن هذا الحق وهناك بعض العلماء خالفوا في ذلك لكني أرى أن هذا الرأي الصائب، هذا الفرق بين أني أرد الحق وبين أن أقول هذا الذي أعرفه من الحق، الذي أعرفه من الحق والذي أعمل به وهذا ما عليه الفتوى، هذه كلها كلمات تسمعينها حين تسمع سؤال على الهاتف ونور على الدرب تسمع هذه الكلمات، يقول: هذا الذي عليه الحق، هذا دلالة الدليل عندنا، هذا ما عليه الفتوى، هذه كلمات كلها تقول لك إن هذا الحق، والكلام الآخر يمكن أن يكون قولًا متساويًا ويمكن أن يكون قولًا لا دليل عليه، فيفهمك الثاني ما هو.

يأتي مثلًا حكم غطاء الوجه يأتي أحد يناقش ويناقش نقول: الأدلة الصريحة والواضحة الثابتة تدل على أن كشف الوجه أمر منسوخ وغطاء الوجه هو الناسخ، ومن ثمّ هذه أدلته التي أتت، صحيح أتت أدلة هنا وأدلة هنا لكن بقاء كشف الوجه كان على الأصل لأنهم أتوا من الجاهلية كاشفين وجههم، ثم أتت الأدلة الناقلة عن الأصل وغطوا وجههم، ففهمنا أن الناقلة عن الأصل هي الشرع الأخير، وكذا وكذا والأدلة وعائشة–رضي الله عنها–في حادثة الإفك حين قالت: "كان يعرفني قبل الحجاب" كل هذه الكلمات وما معنى الجيب في لغة العرب، هذا كله حق وهذا الذي نراه وهذا الذي نعتقده، والذين خالفوا ذلك أخذوا أدلة فيها متشابهات.

هذا نقاش غير أن أسفّه كل شيء وأقول: فقط الذي أعتمده هو الصواب وأي شيء آخر باطل!

---

(1) رواه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، 91)

لا تتصوري أن هذا الشيء فقط في الدين إنما حتى في الحياة، يعني (س) تشتري مثلًا جوالًا من نوع و (ص) تشتري جوال من نوع آخر، (س) تبقى طوال الجلسة تدافع عن جوالها وعن شركة جوالها وأنه أفضل شيء وأنه ليس هناك مثله وأنت لابد في النهاية أن تعترفي أن جوالك لا يساوي ولا شيء وفقط جوالها الذي طيب وفقط الذي اشترت منه هو الطيب، أما أنت فلا تعرفي تشترين ولا الشركة ثم تطول الأيام وتأتي نسخة جديدة من جوالك أنت وتأتي تدافع عنه لأنها اعتمدته! أي شيء هي تعتمده وهي تراه إذًا أي شيء آخر لا يكون.

قبل أن نفكر في الناس ونبحث: هذه صفة مَن فيمن أعرفهم، فلنفكر في أنفسنا، وما أخطر هذه الصفة علينا وما أكثرها وما أكثر تكرارها، يكون من الكبر لأنه رد الحق، أنا أمامي الدليل ولا أقبله، غير النقاش وأني أقول إن هذا الدليل الصائب وغير الحوار وغير معرفة الحق.

ومن أجل ذلك عندما تكون لا تعرف أنه حق ولأنك لم تختره فترده وتراه ليس حقًّا هذا مثلما فعل إبليس، إبليس تصوري عابد يعرف مَن هو الله في السماء مع الملائكة، يعرف أن الله خلق آدم بيديه، أُمر بالسجود فيقول لربنا: أنا خير منه! هذه حال خطيرة، لا تتصوروا أن كل من سيكون مثل إبليس سيقول: أنا خير منه، إنما سيرد الحق بصور مختلفة.

عندما يكون طبعنا في الحياة لابد أن يأتي الاختبار ويظهر طبعنا في الدين، مادام الإنسان متطبع في حياته لابد أن يأتي في الدين، فعندما يأتي في الحج يظهر في الغالب الاثنين، يظهر رد الحق في الحياة وفي الدين؛ لأننا نكون ذاهبين نازلين منتظرين وهي ترد الحق، كلما نقول لها: أفضل نجلس هنا تقول: لا لا، أفضل نذهب إلى هنا، إنما ما تعتمده هي، تقول: أفضل نجلس هنا فكلكم تجلسون هنا...فكل هذه الصعوبات التي نجدها في الشخصيات تبدأ برد الحق في الدنيا ثم تنتهي برد الحق في الدين.

فالذي يذهب للحج المفترض أن يكتشف نفسه هل هو من المتكبرين الذين يردون الحق ويجادلون في الحق وفي الأصل أنت تكتشف نفسك في الحياة لأنك وأنت سائر إلى الله في الحياة ورددت الحق وتكبرت عليه هذا معناه أنك تركت الطريق المستقيم وذهبت إلى طريق إبليس، إبليس فعل هذا بالضبط.

نرى الصنف الثالث والخطير جدًا:

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ}

الحقيقة هذا أخطر قسم من أقسام الناس لكونه في ظاهره أنه مستسلم؛ لأن الله-عزَّ وجلَّ-يقول في حق هذا: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ} يعبد الله كلمة خطيرة جدًا، فإذا كان وصفه أنه يعبد الله ماذا بقي؟!

لكن تأتي الصفة بعدها يعبده (على حرف)؛ ولأن الحرف معنوي وليس حسي لا يشعر به الإنسان، ممكن أن يقف على حرف وهو لا يشعر فتأتي الفتنة، والفتنة هذه خطورتها أنها تقلبه على وجهه، فإذا لم يكن يرد نفسه ويناقشها ويراجعها دائمًا عندما تأتي الفتنة لا يستطيع أن يقف؛ لأنه يقف على حرف، متخيلين حرف الجبل؟!

هو متصور أن قدمه ثابتة على الدين.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ} إذًا صفته أنه يعبد يصلي ويصوم ويتصدق "يعبد الله" لكن دافع هذه العبادة تظهر حين تسمع أنه يعبد الله على حرف، ما هو هذا الحرف الذي سيقلبه؟! مصالحه، هواه.

المعنى {فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ} اطمئن به يعني لم يطمئن بالله إنما اطمئن بالخير، حين وجد نفسه أقبل على الدين واستقام، استقامت أموره ونجح، يقول: معناه الاستقامة خير، يرسب يقول: ما فائدة أني صليت، ما فائدة أني صمت!

فمعناه لا يطمئن لدين الله إلا إذا أعطاه الله ما يريد، وهو في صورته كأنه واضع قدمه في مكان سليم والحقيقة تصوريه على حافة من جبل تأتي الفتنة كأنها العاصفة التي تدفعه فينقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة.

وهذا الحقيقة من أخطر الأصناف، لأن في مسألة الجدال ممكن الطباع لا تسمح بالجدال، ممكن الإنسان يحبس نفسه يسكتها لكن حين تكون المقاصد غير صحيحة يكون الإنسان هذا أصلًا عابد لله لكنه غير مكتشف لنفسه أنه يعبد الله على حرف، فعندما تأتي المواقف وتأتي الأمور، يرتدّ ينقلب على وجهه!

هذه الصفة للأسف الشديد ما أظهرها في الحج، واضحة جدًا وتشبه جدًا في الحياة.

مثلًا خرجوا ووجدوا زحام عند القطار، قدر الله أن يكون هناك زحام، لو أراد الله تيسيره كان يسره إنما قدر الله، ولا أتكلم من فراغ إنما من مواقف وأحداث نعيشها مع الحجاج، أنت تعيش مثلما يعيشون وتحبس مثلما يحبسون ثم ترى بنفسك ما موقفك، ولأي درجة أنت قابل أنك محبوس في نوع من أنواع العبادة، أنت أصلًا محبوس تعبد الله!

الناس يقولون: جلسنا خمس ساعات ننتظر القطار، وفي القريب وليس ببعيد في أقل من خمس سنوات كنا نجلس في الباصات خمسة عشرة ساعة ونحن شاكرين الله حامدين له! ونرى الناس السائرين على أقدامهم نقول: الحمد الله، اليوم أنت تركب القطار بعد خمس ساعات تصل في أقل من خمسة عشرة دقيقة والناس يجلسوا خمسة عشرة ساعة في السيارة، لا أتكلم عن الوقائع فقط إنما أتكلم عن أن هناك صور للفتن كثيرة يكون الإنسان سائر أنه لابد أن تكوني يا حملة عندك خطط منظمة، هذه الخطط المنظمة تقابلها الأقدار التي لابد أن نستسلم لها.

كذبوا علينا أكذوبة كبيرة الغرب والشرق أننا منظمين ونسير على القانون وانظري لتسونامي حين آتاهم ماذا فعلوا؟! أغرق الدنيا وحملهم، التفجيرات الأخيرة في الصين ماذا فعلوا؟! إذًا كل شيء يخرج عن السيطرة، لكن يشعرونا أن كل شيء تحت السيطرة!! كل شيء على كيفهم، يضعوا الخطة وتسير بالضبط! حتى الأمراض صار الناس يفكرون فيها هكذا عندك مرض سافر للخارج وافعل كذا ويتحكمون في المرض وأين الله الشافي؟!

فهذه المشاعر حين يكون الإنسان مرتب نفسه أن لا نذهب وأن لا نتأخر إذًا أين المشقة التي وراءها وأصلًا الحج هذا صورة من الحياة لابد أن يكون وراءها المشاق.

على كل حال، هذه التفاصيل كلها يفهمها الحجاج جيدًا ويفهمها الإنسان في الحياة أنه ليس هناك شيء في الحياة يسير كما تريد، لا تتصور لأنك أطعت الله معناه أن الله يعطيك ما تريد! أطعت الله يعني الله يعاملك بحكمته فيسبّب لك أسباب زيادة الإيمان.

تُحبس خمس ساعات وينفرج عنك يوم القيامة الحبس العظيم، تصوري الفارق الآن تحبس خمس ستة عشر ساعة اليوم هنا في الدنيا ثم في نهايتها تصل إلى مخيمك وتصل بعدها إلى بلدك وتغتسل وتلبس وتنام وتفعل كل ما تريد هذا في مقابل أن يوم القيامة لا تحبس عن باب الله ولا تحبس عن باب الجنة! ماذا يكون عشرة أو اثني عشر ساعة ماذا يكون هذا لكن لأن الحج قصد إلى معظَّم وعدم تصور أنه قصد إلى معظّم وأنه صورة بالضبط من يوم القيامة حاصل أننا نتعامل مع محسوسات، وحتى في الحياة تُحبس عن هذا من أجل أن تؤجر، تُمنع من هذا من أجل أن تؤجر، تتألم هنا من أجل أن ترتفع، لك درجة في الجنة لا تلحقها إلا بصداع يصيب رأسك، بألم يصيب إصبعك، بمغص يصيب بطنك، هكذا تلحق الجنة هنا وهنا وهنا ثم تأتي الآلام الأكبر والآلام الأكبر إلى أن يسير الإنسان من الآلام والأمراض وليس عليه خطيئة، كل هذا من نعمائه!

فالذي عبد الله على حرف وينتظر فقط ما يناسبه وما يرغبه ما عبد الله حقا.

يعبد الله على حرف، حرفه متى أصاب الخير اطمئن للخير اطمئن للدين وثبت عليه، وإذا أصابه ضر شيء لا يناسبه انقلب على وجهه، انقلب على وجهه بمعنى سبّ الدين، كره، رجع، في الحج كره الحج، يسب الحج وهكذا، وتحصل مواقف يظنون أنهم يتكلمون عن الناس وهم في الحقيقة يتكلمون عن الله!

في هذه الأيام خصوصًا لأن المسألة فيها حملات فيضعون ثقلهم على الحملة، على الناس، وفي الحقيقة هم يعترضون على قدر الله، ولا أقصد بهذا الكلام التسبّب إنما أقصد بهذا الكلام أنك مؤمن أنه: ((أَنَّ الأمة لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ))[1] وكثير كثير منا نكون متجاورين نركب نحن وهم لا يركبون ويركبون هم ولا نركب نحن وهم يصلون قبلنا بأربعة خمس ساعات ونحبس نحن بسبب فقط خطوة لم نخطها فمن حبسنا وأكرمهم؟! الله.

فأنت تصورها هكذا وتصورها في الحياة إن شاء الله يتبيَّن.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

---

(1) رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

نهاية اللقاء الأول

اللقاء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

اللقاء الثاني: ألقي يوم الخميس 19 ذوالقعدة 1436

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله-عزَّ وجلَّ-حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا ونسأله-سبحانه وتعالى-أن يجعل اجتماعنا هذا اجتماعًا مرحومًا ويجعل تفرقنا من بعده تفرقًا معصومًا اللهم آمين.

كنا في اللقاء الماضي تكلّمنا عن وقفات مع سورة الحج، وابتدأنا في الوقفات بالنظر إلى اسم السورة، كلمة "الحج" هذه الكلمة، ذكرنا معناها في لغة العرب وكون سورة تسمى بها، نختصر ما مضى في ثلاثة نقاط:

الأمر الأول: أن سورة تسمى باسم ركن في مقابل أن بقية أركان الإسلام لم تسمَّ بها سورة، والسبب أن الحج يجمع كل الأركان من شهادة أن (لا إله إلا الله) إلى الصلاة إلى الصيام إلى الزكاة.

فإنّ الحاج لابد أن يكون موحدًا ويظهر توحيده في كل أفعاله ومن أهمها التلبية -وهذا سيكون موضوع نقاشنا اليوم-إن شاء الله-.

وأيضًا الحاج تكون منه الصلاة المفروضة ويكون منه الطواف الذي يشبه الصلاة، ويكون من الحاج دفعه للمال الذي يشبه الزكاة، ويكون من الحاج الامتناع لكن ليس عن الطعام والشراب إنما الامتناع عن الرفث والفسوق والجدال في الحج، فيكون نوع من الامتناع يشبه الصيام، يعني يمسك عن هذه الأمور.

فعُلم من ذلك أن الحج يجمع جميع مقاصد أركان الإسلام التي أهمها على الإطلاق التوحيد وهذا الذي سيكون موضوعنا اليوم.

ثم أمام هذه المقاصد العظيمة التي من وراء الحج التي أصلها التوحيد والتوحيد مبني على الاستسلام، أتى الأمر الثاني،

الأمر الثاني: قابل الناس تقوى الله وتوحيده والاستسلام له هذا الأمر بأربعة من ردود الأفعال، يعني أصبحوا أربعة أصناف أمام الأمر بالتقوى الذي ابتدأت به السورة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ}(1) هذه التقوى هي نفسها التوحيد.

أمام الأمر بالتقوى انقسم الناس إلى أربعة أقسام، ناقشنا المرة الماضية ثلاثة أقسام:

(1) [سورة الحج: 1]

الأول: الذي يجادل تبعًا، يجادل في الله {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ}[1] إذًا يجادل في الله أي: يجادل في استحقاق الله للألوهية، يجادل في الاستسلام لله، يجادل في طاعة الله، في التوحيد، لكن هذا المجادل صفته أنه تابع، أي: يكون هناك شيطان مريد يلقي الشبّه وهذا يستقبلها ويصبح يتكلم بلسانه، وهذا قد جادله الله وقد بيَّن له الحق ولذلك قال بعد ذلك في الآيات: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم}[2] ونوقش في ذلك لأنه جادل تبعًا فبُيِّن له الحق، ضُرب له مثل في نفسه وضُرب مثل للأرض والنبات ثم بعدها قال الله–عزَّ وجلَّ–: {ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ} يعني لما يتبيَّن لك وتفكر كما ينبغي ستعرف أن الله هو الحق، {وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا} لأنه لا يمكن أن يكون كل هذا الخلق ثم لا تأتي الساعة! {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ(7)} جادل هذا الذي يجادل تبعًا، لأنه تبع يعني ليس صاحب رأي إنما هو كلما سمع جدال سمع شبهة يتابع.

نأتي للثاني: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ} هذا أيضًا يجادل بغير علم ولا هدى لكن يصور نفسه كأنه فقيه زمانه ويعرف كل شيء ويحلل بعقله كل أمر ويخرج رأسًا يلقي الشبّه على المسلمين، فيأتي يومًا يقول لك: مَن قال لكم إن صحيح البخاري صحيح! يوم يقول لك: من قال لك إن أبو هريرة فيه من الصفات كذا وكذا، فيذم ويطعن فيه–رضي الله عنه–! كل يوم يخرج بشبهة...

هذا عندما يأتي أحد يناقشه، يراه {ثَانِيَ عِطْفِهِ} يلوي عنقه كبرًا لا يريد الحق، هذا توعّده الله–عزَّ وجلَّ، لم يناقشه ويبيِّن له إنما توعده،

قال الله–عزَّ وجلَّ–: {لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ} ما الفارق بينه وبين الأول؟ الأول تابع إنما هذا متكبر، رأس، هو لا يريد الحق، عنده عقل يستطيع أن يفهم الحج لكن لا يريده ويريد أن يكون رأسًا في ذلك.

يأتي الثالث: من يعبد الله على حرف، هذا الذي يعبد الله على حرف مصيبته عظيمة جدًا لأن الله–عزَّ وجلَّ–عندما وصفه قال: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ} إذًا في صورته الظاهرية عابد لله لكنه يعبده على حرف وهذا للتشبيه، أي: كأن واحدًا يقف على طرف جبل، فهذا في إيمانه وتوحيده ويقينه يقف على الطرف، يعني قدمه ليست ثابتة على الإيمان إنما قدمه على طرف الإيمان، متى تزل؟! تزل عندما يرزق ما لا يريد، حين يأتي الشيء على غير هواه، وهذا الأمر نسمعه خصوصًا من الشباب وخصوصًا من تربوا على طريقة (صلي من أجل أن الله ينجحك، صلي من أجل أن الله يوفقك، صلي من أجل أن يعطيك) فلما لا يعطيه يقول: أنا صليت ولم يعطِني!

(1) [سورة الحج: 3]
(2) [سورة الحج: 5]

تقول له: اتقِ الله من أجل أن يحفظك الله، اتقِ الله من أجل أن يبارك لك في أموالك، اتقِ الله من أجل أن لا تدخل النار، فيقول لك: سأتقي الله من أجل أن تُحفظ أموالي! فقط من أجل مصلحته، لكن اتقِ الله لعظمة الله أو اتقِ الله من أجل أن لا تُعاقب يوم القيامة؟! لا، كل القضية هنا في الدنيا، كل التفكير هنا في المصالح.

أسأل الله –عزَّ وجلَّ– أن يثبتنا جميعًا وقت الابتلاء، مثلا يكون لها محبوب ويكون له ولد ثم تفقده، تبقى تقول: أنا صليت لك يا ربنا، أنا صمت لك! معناه تعبده على حرف إن قدر عليها ما لا تريده وما لا تهواه انقلب على وجهه {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ}.

هذا الحرف الذي يعبده عليه مقياسه: {فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ} "به" أي: بالخير وليس بالله، والمؤمن يطمئن بالله، المؤمن عندما يذكّر الله يطمئن، وهذا الذي يعبد الله على حرف عندما يذكّر أطماعه يطمئن، عندما يذكّر أن الله قادر أن يعطيه ما يريد فقط هنا يطمئن، لكن لو قلت له: إن الله حكيم، لو قلت له: إن الله –عزَّ وجلَّ– يحبس عن العبد بعض ما يشتهيه رحمة به لا يطمئن، لو قلت له إنه ليس كل شيء تريده هنا في الدنيا وأن الدعاء من آثاره:

1. أنه يمكن أن يعطيه الله مراده.
2. ويمكن أن يدفع عنه بمقداره بلاءً.
3. ويمكن أن يبقى له في الآخرة.

وفي النهاية نفس الدعاء عبادة يكتب لك أجرها، عندما تقولين له هذا الكلام لا يطمئن! يشعر أنه لابد أن أدعو وأجد ما أدعوه وإلا ليس هناك داعٍ للدعاء! فمثل هذا يعبد الله على حرف ويجادل في استحقاق الله.

سنقرأ الآية الرابعة عشر التي ستكون الصنف الرابع بالنسبة لنا لكنها ستختلف في أسلوبها عن الآيات التي مضت، قال تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}

لما بدأت السورة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ} قابلها:

{وَمِنَ النَّاسِ} يعني ومن الناس الذين خوطبوا بالأمر بالتقوى في أول الآية أصناف:

الصنف الأول: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ}

الصنف الثاني: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ}

ثم جاءنا الصنف الثالث: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ}

أصبحت ثلاثة أصناف، بدأت الآية بنفس الأسلوب: {وَمِنَ النَّاسِ}

لكن لما أتى الكلام عن المؤمنين كلمنا الله مباشرة عن الجزاء: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} . إذًا هذا الصنف الرابع أمام الأمر بالتقوى، نرى هذا الصنف ما صفته باختصار ثم هذا الصنف سيخرجنا من هنا إلى الكلام عن الشيء المهم ألا وهو التوحيد والحج.

الناس في الحج يشبهون هذه الأصناف الأربعة، سواء كان الناس في الحج أو الناس في الحياة واحد من أربعة أصناف:

1. إما مجادلين تبعًا.
2. وإما مجادلين رأسًا.
3. وإما يعبدون الله على حرف.
4. وإما آمنوا وعملوا الصالحات.

نصف الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعلاقتهم بالتقوى.

بدأت السورة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ} ثم {وَمِنَ النَّاسِ} {وَمِنَ النَّاسِ} {وَمِنَ النَّاسِ} ثلاثة أصناف انتهينا منها، ثم أتى الصنف الرابع لكن أتانا بأسلوب مختلف عن الباقي مباشرة أتانا بالكلام عن الجزاء دلالة على أن الله قَبِلَهم!

{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما علاقتهم بالتقوى؟

المؤمن عندما يؤمر بالتقوى لابد أن يكون متيقّن بعظمة الله من أجل أن ينفعل مع تقوى الله، بمعنى أنه لو ما كان يعلم عن الله وعن عظمته وجلاله وسلطانه، لا يحصل في قلبه خوف من الله، ولو لم يعلم عن الله إحسانه وعطاؤه وجماله سبحانه وتعالى، فلن تحصل في قلبه محبة لله، فإذا وقع الإيمان في القلب بعظمة الله وجلاله وجماله وإحسانه، اتقى العبد سخط الرب.

وهذا أمر واضح جدًا حتى في العلاقات الإنسانية، قبل أن نتكلم عن علاقتنا بالله والتقوى نتكلم عن العلاقات الإنسانية...

لو أحد أحب أحد ووجد في نفسه شدة احترام له، فيتقي مع هذه العلاقة أن يظهر منه ما يسيء، يتقي مع العلاقة ما يكدرها، يتقي مع العلاقة أن يحصل موقف بسببه تنقطع العلاقة أو يحصل بين الطرفين ما يشين؛ إذًا مَن أحب وعظّم لابد أن تخرج منه التقوى، لابد أن تكون هناك تقوى.

إذًا الإيمان لابد أن يأتي بالتقوى، ما العلاقة مرة أخرى؟

الذي يؤمن بكمال الله وجلاله وجماله وإحسانه-سبحانه وتعالى-لخلقه، لابد أن يتّقي أن يسخط ربه، يتّقي المواطن التي يعلم أن الله ينظر إليه فيها ولا يرضى عنه؛ استحياءً من الله، خوفًا من أن يطرده الله من رحمته وهكذا، فمعنى ذلك أن العبد المؤمن ما صفته؟ لابد أن يكون متقيًا، ما السبب الذي يجعله يتقي؟ تعظيمه لربه، معرفته لربه.

إذًا هناك علاقة واضحة بين الإيمان والتقوى:

إذا قوي الإيمان قويت التقوى.

وإذا ضعف الإيمان ضعفت التقوى.

بمعنى إذا اشتدّت في القلب معرفة الله وأصبحت هذه المعرفة بأسماء الله وصفاته وأفعاله حق اليقين، كانت التقوى طريق لا يفارقه الإنسان، **كلما** كان واضح جدًا أمام عينيه كمال الله-أي: يعرف الله يقينًا-، ويعرف أنه في قبضة الله، ويعرف أن بطش ربه شديد، ويعرف أنه يبدئ ويعيد، ويعرف أن له ملك السماوات والأرض، ويعرف أنه حليم وأنك لو أسخطته-سبحانه وتعالى-يحلم عليك لكن حلمه ليس دليلًا على رضاه، ويعرف أن ربه كريم، ويعرف أنه منان يعطي النوال قبل السؤال...

كلما زادت المعرفة وأصبحت يقينية، اشتد خوف الإنسان من أن يفعل شيء يسخط عليه مولاه به.

عندما تكون المعرفة ضعيفة أو مجرد معرفة لم تصل حد العلم اليقيني، لا يهمّه أن يفعل ما يسخط الله.

أكثر شيء يؤثر في الإنسان صورته عند الناس، وهذا الأمر موجود في الحياة وحتى في الحج موجود.

نفترض جدلًا أن هؤلاء عندهم عزاء أو حزن، يعني مات لهم عزيز وهم في قرارة أنفسهم يشعرون أن الله-عزَّ وجلَّ-ستر هذا الميت الحمد لله، مات في حالة حسنة وستره لكن أهل الميت لو لم يبكوا وأظهروا جزعهم قالوا عنهم إنهم لا يحبونه وهم يعرفون حكم النياحة في الإسلام وأن هذا يسخط الله، فنحن أمامنا اختيارين:

- اختيار أن يصبح الإنسان أمام الناس في صورة حسنة أنه حزين.
- وهناك اختيار أن يحبس نفسه ويصبر من أجل الله وليس من أجلهم وهذا الاختيار ربما سبب له الكلام عند الناس.

على حسب معرفته بالله ويقينه في الله ومراقبته لله سيتصرف:

إما يتقي سخط الله.

وإما يتقي سخط الناس.

وهكذا في كل الحياة ومنها الصورة المصغرة التي في الحج، بمعنى أن التقوى والإيمان قرينان، إما الإنسان يتقي الناس وإما الإنسان يتقي الله، وأحيانًا أنت تكون مأمورًا أن تتقي الناس لأجل الله.

مثلًا تتقي عقوق الوالدين:

- إذا صدقت في تركك لعقوق الوالدين من أجل الله، سيصبح طاعة لله، ستلاحظ بشر وهم والديك، لكنك كنت خائفًا أن يسخطا حتى لا يسخط الله، فهذه التقوى في مكانها، يعني اتقيت سخط الوالدين مع أنهم بشر لكن من أجل الله.

- ويمكن أن تتقي سخط الوالدين لأنهم لو سخطوا منعوا عنك المال، منعوا عنك كذا، ما استقبلوك، لا تجد أحد يكلمك، فأنت مضطر لطاعتهم من أجل مصلحتك، فهذه لا تكون تقوى لله إنما هذه تقوى من أجل الناس.

إذًا معنى ذلك أن من عرف الله حق المعرفة، اتقى سخط الله صادقًا ولم يلاحظ سخط الناس إنما كل الذي يخاف منه أن يسخط الله-عزَّ وجلَّ-عليه، فهو حريص على أن يتقي ما يسخط الله.

في أحيان كثيرة الناس يكونون مثيرين لك لكي تقع في سخط الله، وهذا في الحج واضح جدًا...

مثلًا تكون في الحرم، في المطاف، في أطهر بقعة على الأرض في مكان وطأته أقدام الأنبياء، ويأتي أحد يدفعك، يأتي أحد يثيرك أي إثارة من هذا النوع، الناس يثيرون فيك عدم تقوى الله؛ لأنك لو انفعلت انفعال الإنسان الطبيعي أن الذي يدفعك تدفعه أو الذي يدفعك تسبّه ستكون استجبت للمثير، ما اتقيت الله، ما صبرت كما ينبغي، والناس حولك بهذه الصورة وخصوصًا في الحج تحتاج أنك تتقي الله بالصبر على الناس بحيث أنهم لا يثيرونك فتقع فيما يسخط الله.

وترى كل الحياة بهذه الصورة، فعندما تسمع أي مشكلة زوجية مهما كانت، في النهاية هذه المشكلة عبارة عن فتنة وابتلاء واحد سلط على واحد الزوج على الزوجة أو الزوجة على الزوج أيًّا كان وهل أنت ستتقي الله في هذا الذي تعامله أم لن تتقي الله، كل القصة بهذه الطريقة، كل أنواع المشاكل إثارة ثم أنت ماذا ستفعل، هل ستتقي الله أم لا؟ هل ستتعامل معه بصورة تراقب فيها الله أم بصورة تراقبه هو؟

هذا فيما يحتاج إلى صبر، وحتى فيما يحتاج إلى شكر، مثلًا عندما يأتيك ما يسعدك أحيانًا كثيرة تتوجه قلوبنا لشكر الناس، والحق أن نتقي أن ننسب النعمة إلى الناس، والصدق أن ننسبها إلى رب العالمين، يعني أتاك ما ينفعك رُزقت من يحبك، رُزقت بجارة طيبة...إلى آخره، هذا أصلًا رزق من الله سخّره الله، فأنت طوال الوقت تذكر أني سأسخط الله لو فكرت في ذات الشخص وسأرضي الله لو فكرت أن الله سخّر لي، يسّر لي، رزقني.

وهكذا الحياة اختبار لتقوى الله؛ ولذلك: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} يعني اتقوه من أجل أنكم ستلقونه، وحين تلقونه سترون نتائج تقواكم أو عدم تقواكم، فالعبد المؤمن يعرف أن الأمر كله بيد الله والله-عزَّ وجلَّ-يختبر الخلق بما يحصل لهم في الدنيا من أحداث وأقدار وإذا اتقوا مساخطه، ومساخطه ستكون واحد من أمرين:

إما لا يصبروا في مواطن الصبر.

وإما لا يشكروا في مواطن الشكر.

وكل الباقي تحت هاتين الكلمتين، والحج كله هنا تصبر وهنا تشكر، أنت تخرج من منى إلى عرفة تحتاج أن تصبر، وصلت عرفة تشكر، وقفت في القطار أو حُبست في الباص المطلوب منك أن تصبر؛ لأن هذه مسافة من الحياة مثل أي مسافة

من الحياة تحتاج صبر، وصلت عرفة ليس مثلما تصل إلى أي مكان! أنت وصلت مكان تعرف أن الله-عزَّ وجلَّ-ينزل في عشيته والناس كلهم قلوبهم معلّقة بهذا المكان الذي رزقته، فلما تصل مطلوب منك تشكر، ما صورة الشكر هنا؟

صورة الشكر أنك تستفيد من الوقت، تبقى تدعو وتلهج بالدعاء، ومع الشكر تحتاج صبر على أن تشكر، وهناك مع الصبر وأنت تقف في القطار أو تقف في الباص أو أنت محبوس اشكر الله، هناك ناس في بيوتهم يتمنون أن يقفوا أضعاف ما وقفت لكن فقط يكونوا مع الواقفين.

فالمقصد أن كل المواقف تحتاج الأمرين لكن بنسب مختلفة بين شكر وصبر، وهكذا الحج وهكذا كل الحياة؛ ولذا النبي-صلى الله عليه وسلم-يقول: ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))[1].

ولذلك ما تقوى المؤمن؟ يؤمن أولًا أن كل هذا الذي يجري عليك أقدارًا له اختبار.

فمثلًا زميلك تقدّم عليك بخطوة واحدة في الخروج، يساوي أنك حُبست وهو لم يُحبس! لأن هذا رزقك أن تصبر وهو رزقه أن يشكر، وكل هذا عند الله.

هكذا كل الحياة... مثلًا: أخوات هذه تُرزق استقرارًا أسري وأبناءً ومطلوب منها أن تشكر، وهذه لا ترزق استقرارًا أسري أو ليس عندها أولاد أو أولادها يتعبونها ومطلوب منها أن تصبر وهكذا.

فالمؤمن لابد أن تقع منه التقوى، يعني يتقي مساخط الله.

فإذًا إيمانه بالله لابد أن يورثه عملًا صالحًا ولذلك يقول الله-عزَّ وجلَّ-: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} يعني لا يكفي أن تؤمن أن الله عظيم، أن الله كريم، أن الله كامل الصفات، أننا سنلقى الله، لا يكفيك إنما لابد بعد هذا أن يخرج العمل الصالح الذي تحت أحد عنوانين (إما صبر وإما شكر) وهذا له تفاصيله وهذا له تفاصيله لكن أمره كله له خير ما لك إلا أن تصبر أو تشكر بأسماء مختلفة، أسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يوفقنا لذلك اللهم آمين.

ننظر لآخر الآية: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} وهنا أمر مهم بالنسبة لحالنا اليوم سيتبيَّن أكثر لما نقرأ الآية الثانية، يعني كأننا سنقول: "إن الله يفعل ما يريد" ثم نكمل الآية التي بعدها، سنعلِّق على هذا ومنها سنخرج إن شاء الله إلى التوحيد:

---

(1) رواه مسلم في صحيحه (كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، 2999)

{مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} هذه الآية فيها غموض في معناها، نفهم معناها عمومًا ثم نربطها بما سبق ثم نربطها بسورة الحج.

{مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} نبدأ بالضمير، ينصر من؟

في أرجح الأقوال: أنه من كان يظن أن الله لن ينصر نبيَه–صلى الله عليه وسلم–ودين النبي–صلى الله عليه وسلم– والمؤمنين تبعًا له في الدنيا والآخرة.

فمن ظن أن الله لن ينصر النبي ودين النبي والمؤمنين في الدنيا والآخرة ماذا يفعل؟! {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ} سبب يعني حبل.

{إِلَى السَّمَاءِ} أقرب شيء في التصور إلى السماء يعني إلى السقف، السماء في لغة العرب تعني أعلاه، فممكن السماء المبنية أو السماء يعني أي شيء فوقك.

{ثُمَّ لْيَقْطَعْ} كأنه يقال: يخنق نفسه.

{فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} يعني الذي يظن أن الله لا ينصر نبيه ولا ينصر دين النبي والمؤمنين وهو يرى أن الإسلام ينتشر ويكثر خصوصًا وهذا الأمر يظهر في الحج وكون الناس مقبلين على الحج ويودونه.. فليخنق نفسه ولينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ. هذا معنى.

وهناك معنى آخر ربما أقرب في الفهم: الذي يظن أن الله لن ينصر دينه ونبيه والمؤمنين فليمدد بسبب إلى السماء يعني السماء المبنية يعني كأنه يصعد إلى الله، السماء التي ينزل منها النصر، {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ} يعني بحبل، إلى السماء المبنية، فليقطع الأسباب التي منها يأتي النصر، ثم ينظر هل يُذهب هذا الفعل الغيظ الذي في قلبه.

هذا مضروب على الاستحالة.

نرى المعنى الثاني لأن هذا المعنى القريب...

الحج من أكثر المظاهر التي تغيظ العدو وهو مظهر الاجتماع مع المسلمين، الذي يحج ويرى هذا المنظر يكون بالنسبة له منظر مهيب أن يرى المسلمين وفي الطواف وفي السعي وفي عرفة، وأول ما تصعد لمكان عالٍ وتري الناس تحتك ما أكثرهم خصوصًا الناس عندما يعودون من مزدلفة–خصوصًا هذه الأيام–عندما يكون الناس سائرين في طريق واحد، في جسر واحد تري الناس قبلك وبعدك عالم! وكلهم متجهين إلى ربهم! هذا منظر مهيب الذي يعيشه يشعر به.

فهنا أتى الخبر أن الذي يظن من العالم أو من هؤلاء المجادلين وخصوصًا الذين يعبدون الله على حرف؛ لأن الذين يعبدون الله على حرف يقولون لو كنتم على الصواب كان نصركم الله! لماذا الكفار ينتصروا عليكم؟! لماذا الكفار أهل عزة في الدنيا وأنتم أهل ذل! لأنهم يعبدون الله على حرف، فكل التفكير عندهم إذا أعطانا الله الدنيا نكون على صواب، وإذا لم يعطِنا الدنيا نكون على خطأ، هذا تفكيرهم.

فالله يقول لهم ويقول للمجادلين أيضًا السابقين: إذا كنتم تظنون أن الله لن ينصر النبي–صلى الله عليه وسلم–ولا دين الإسلام ثم ترون مواقف عجيبة في دخول الناس للإسلام، وأنت تري هذا الموقف اليوم، تري أحد نحن ربيناه من أولادنا أو من المسلمين في ديار المسلمين، ويطلق لسانه على المسلمين ويتكلم عن ضعفهم ويتكلم أنهم لو كانوا على الحق لكان نصرهم الله! ثم أمام هذا الواحد والعشر أو العشرين الذين نخسرهم يدخل في الإسلام مئات! فهذا الذي عندنا يقول: ما بهم يخرجون من حضارتهم. أي: يخرج من دينه سواء كان نصرانيًا أو غيره ويدخل في الإسلام الذي يعتبره سبب للتخلف! فالله يقول لهذا ولأمثاله: إذا كنت تستطيع أن تصعد إلى السماء وتقطع أسباب النصر فافعل! لو كنت تستطيع أن تصعد إلى السماء وتقطع أسباب اجتماع هؤلاء الحجاج من كل أرض، فافعل، وأنتم عندما ترون الحجاج تستعجبون وحتى أن هناك أشكالًا لا يمكنك أن تراها إلا في الحج! من كل بقاع الأرض، ويجتمعون في مكان واحد ثم الناظر لهم يقول: من أجل أي شيء أتوا؟! ما الذي يأتي بهم إلى أرض لا سياحة يمكن أن تكون فيها، ومن جهة الجو ومن جهة كل شيء، واد وصفه أنه غير ذي زرع، ليس فيه أي شيء من الدنيا، لن يتمتعوا بالدنيا هنا، فحين يأتي هؤلاء هنا ويجتمعون ماذا يفعل هذا في قلب المغتاظ؟!

يزيده غيظًا، فهو يقول: ما الذي أتى بهم؟! ما الذي جمعهم؟! ما الذي جعلهم يأتون؟!

الجواب: لو استطعت أن تصعد إلى السماء وتقطع أسباب النصر فافعل، وانظر هل يذهب هذا غيظ قلبك!

نرى العلاقة الآن بين الآيتين:

الله يقول: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ} هذا معناه أن المؤمن يتعرض للسفهاء الذين يقولون له: لن تجد لا دنيا ولا آخرة، يتعرض للسفهاء الذين يقولون له: أنت تعقّد على نفسك ولن تجد شيئًا في الدنيا لأجل أنك محروم ولن تجد شيئًا في الآخرة لأنه لن يكون هناك فرق بين الناس، أو من يقول: ربنا رحيم سيدخل كل الناس الجنة! وهذه افتراضات وأطروحات.

فالله يقول: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} يعني هذا الذي تستهزؤون به وترون أنه لا يصلح أن يدخل في مكان، وأنه سفيه يعني ما له في الدنيا شيء، أو أنه حرم نفسه شيء من الدنيا أو تحتقرونه أو تحتقرون عقله، أو يأتي يقول لك أنا على يقين أن ربنا الشافي، فيأتي هذا الثاني يستهزأ به ويقول له أنت لن تحصل لا دنيا ولا آخرة وهكذا وهكذا، الله–عزَّ وجلَّ–يقول: {إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} وسترون في الآخرة كيف أن الله–عزَّ وجلَّ–يدخل هؤلاء المؤمنين الجنات التي تجري من تحتها الأنهار وعقولكم ليست حكمًا على الخلق، فإن ما تقدسونه وتحترمونه في الدنيا لعقله أو لجاهه أو لماله ليست هذه منزلته عند الله، والذي

تحتقرونه لقلة ماله أو لقلة مكانته أو لعدم ظهور مكانة له، هذا ليس بمقياس عند الله، إنما المقياس في الرفعة يوم القيامة: الإيمان والعمل الصالح {إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}.

ولذا لا نسب شريف في الدنيا ولا جاه ولا مال ينفع العبد، إنما الذي ينفع العبد التقوى وهي الميزان، والتقوى تفصيلها الإيمان والعمل الصالح.

{إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ} يعني الذي يظن أن الله لن ينصر رسوله في الدنيا والآخرة فليفعل هذا لما يرى أسباب النصر، وهذا معناه أن الله–سبحانه وتعالى–يسبب أسبابًا للنصر وهذه الأسباب تأتي رويدًا رويدًا وأهم أسباب النصر–كما سيتبيَّن لنا من نفس السورة–: انتشار التوحيد وزوال الشرك، إذا لم يكن هذا السبب موجود فكل الحلول لا تساوي شيئًا، إذا كان التوحيد ليس موجودًا؛ فكل الأطروحات التي تسمعونها لا شيء، لا ثورات ولا جيش ولا جنود ولا أي شيء، التوحيد أولًا ثم الله–عزَّ وجلّ–يسخّر أسباب النصر.

المقصد أنّ الله–سبحانه وتعالى–: {يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} حتى لو سخط من سخط ورضي من رضي، فالمقياس ليس رضا الخلق أو سخطهم على العبد إنما المقياس تقوى العبد ومنزلته عند ربه، ومن اغتاظ من أهل الإيمان ونصرتهم واجتماعهم وتمسكهم بدينهم يقال له: اصعد إلى السماء واقطع أسباب النصر، وتتبيَّن في السورة الآن أسباب النصر.

انتهينا من الكلام عن الأربعة أصناف الذين قابلوا أمر التقوى وعرفنا أن الصنف الأخير هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، الذين اتقوا وأن هذا الصنف يدخلهم الله جنات تجري من تحتها الأنهار، وأن هذا الصنف يغيظ الناس لتمسكهم بتقواهم، وعندما يتمسَّك الناس بتقواهم لربهم ماذا ينتظر أن يكون من ردة فعل الناس؟

هذا مثل ما ورد في سورة البروج: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(8)} يعني كلما زاد المؤمنين تمسكًا بإيمانهم كلما زادت نقمة أهل الكفر واغتاظوا.

اتفقنا أن السورة صنفت أربعة أصناف مقابل التقوى، نشير الآن أن السورة بعد ذلك قسمت الناس في نهاية الأمر إلى قسمين فقط، سنرى هذا في آية (19):

{هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}

ابتدأت الآية: {هَٰذَانِ خَصْمَانِ} إذًا الأربعة عادوا فأصبحوا خصمين، قال الله-عزَّ وجلَّ-: {هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ} وسنرى كيف اختصموا وكيف جادلوا.

{فَالَّذِينَ كَفَرُوا} هذا الصنف الأول: الذين كفروا، وأخبر الله-عزَّ وجلَّ-كيف سيعاملهم.

نرى الصنف الثاني:

{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ}

إذًا الصنف الثاني الذين آمنوا، لاحظوا أنه أتى بنفس الطريقة التي في التصنيف الأول، لما كنا نقرأ الآيات في التصنيف ومن الناس ومن الناس وصلنا: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} هنا لما أتينا: {هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ} ثم {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} بنفس الأسلوب عُرضوا.

معناه أن الأربعة أصناف كلهم انقسموا مرة أخرى إلى قسمين، المجادل والمجادل والذي يعبد الله على حرف إن لم يعد إلى الإيمان دخلوا في الصنف الأول، والذي يجادل وعاد إلى الإيمان سيدخل في الصنف الثاني: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}.

أكيد لاحظتم أن الكفار يقول الله-عزَّ وجلَّ-في حقهم: {قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ} في مقابل أن المؤمنين قيل في حقهم: {وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} وعندما تقرئينها تعرفين كيف المقارنة لأن هاتان الحالتان المتناقضتين في الدنيا تورثهم حالتين متناقضتين في الآخرة.

شاهدنا الآن أن الله-عزَّ وجلَّ-في آخر السياق هنا قال: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} الراجح من كلام المفسرين أن الطيب من القول هو كلمة التوحيد، ومن هنا تأتي العلاقة بين النصر والتوحيد، الرفعة والتوحيد، جنات النعيم والتوحيد، التقوى والتوحيد، بل الدين كله والتوحيد، بل الحياة كلها والتوحيد، لأن هؤلاء المؤمنين انظري إلى وصفهم في الآخرة وانظري إلى وصفهم في الدنيا.

الله-عزَّ وجلَّ-يقول في وصفهم في الآخرة هنا في السياق: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} هذا في الآخرة، وحالهم في الدنيا؟ كأنه يقال والسبب؟ {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ}.

فإذًا بسبب أن الله هداهم إلى الطيب من القول وبسبب أن الله هداهم إلى صراط الحميد كان دخولهم الجنة.

سيزيد الأمر بيانًا مباشرة أنه تأتي الآيات بعدها تتكلم عن الحج وإبراهيم–عليه السلام–مباشرة في السياق، فيتبيَّن أن الأمر كله يدور مع بعضه أن هؤلاء المؤمنون الذين يدخلون الجنات التي تجري من تحتها الأنهار هم نفسهم الذين اتبعوا إبراهيم–عليه السلام–وهم نفسهم الذين اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم على دعوة التوحيد.

سيزيد الأمر بيانًا إن شاء الله لما نقرأ الآيات التي تتصل بإبراهيم–عليه السلام–:

{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ}

أول السياق في الكلام حول إبراهيم–عليه السلام–والبيت، الله–عزَّ وجلَّ–يقول: {وَإِذْ بَوَّأْنَا} يعني هيّأنا ومكّنا لإبراهيم مكان البيت من أجل بنائه.

أهم شيء في البيت: {أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} إذًا معنى ذلك لأننا نتكلم عن الحج، عن المؤمنين، عن التوحيد، لما الله–عزَّ وجلَّ–فرض على الخلق الحج أولًا قبل الفرض هيّأ لإبراهيم–عليه السلام–مكان البيت، وأمره أن يكون هذا البيت طاهرًا من الشرك: {أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ} لهؤلاء.

ثم {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ} إذًا الحج دعوة إلى التوحيد؛ لأن الله هيّأ لإبراهيم–عليه السلام–البيت وأمره أن لا يشرك في البيت شيء وأن يطهّر من أي صورة من صور الشرك، أي: يبقى على التوحيد، فالطائفين والقائمين والركع السجود هؤلاء لابد أن تكون أفعالهم كلها لله–عزَّ وجلَّ–.

ثم {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ} كيف يأتونك؟ {يَأْتُوكَ رِجَالًا} يعني على أرجلهم شوقًا.

أو {وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ} يعني على كل ناقة قد ضمرت بسبب المشوار الطويل الذي قضته.

معنى ذلك أن الذي سيحج البيت سيكون بعيدًا، مع بعدهم لكنهم سيأتون، كما قال الله–عزَّ وجلَّ–:

{يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} من أجل أي شيء؟

قال الله–عزَّ وجلَّ–: {لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} وأهم شيء في هذه المنافع: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ}.

اقرؤوا الآيات جيدًا سيتبين لكم أن الحج كله يدور حول التوحيد خصوصًا أن الذي أذّن بالحج أول ما أذّن هو إبراهيم–عليه السلام–؛ إذًا سنتكلم الآن عن ثلاثة أمور:

1. سنتكلم عن التوحيد.
2. عن إبراهيم–عليه السلام–.
3. عن الحج.

هذه الثلاثة أمور المشتركة لأنه حتى ونحن نرمي الجمرات، وحتى ونحن نطوف، عندما تطوف وتنتهي من الطواف وتقبل على المقام ستقول: هذا مقام إبراهيم.

نبدأ أولًا بعلاقة التوحيد وإبراهيم–عليه السلام–:

كما هو معلوم أن التوحيد رسالة الرسل كلهم، بل من أجل هذا التوحيد خلق الله الخلق وأرسل الرسل وأنزل الكتب وكان سوق الجنة والنار، كل الاختبار حقيقته على توحيد الله.

والتوحيد في حقيقته هو معرفة يقينية–أي: علم اليقين–بالله يتبعها عمل القلب، يتبعها عمل الجوارح.

يعني عبد يعرف مَن هو الله فكلّ قلبه يتحرك لله، هذا لو نريد أن نقول: هذا العبد قد حقّق التوحيد، السبعون ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ما صفتهم؟

صفتهم في الحديث أنهم ((هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ))[1] لا تقف عند الأفعال فقط، إنما مجمل الصفات لا يستطيع أن يصلها الإنسان حقيقة ويكون من أهلها إلا إذا حقق التوحيد، ما معنى حقق التوحيد؟

عرف الله معرفة يقينية أوصلته أن لا يكون فعل من أفعال قلبه ولا التفاتة من التفاتاته إلا لله، عرف الله معرفة يقينية بحيث تكون التفاتات قلبه وحركات قلبه وأفعال قلبه لله، يعني يُقبل على أي شيء ويقول: الله ينظر إلى قلبي الآن ماذا أفعل، أصبر هنا، أشكر هنا، ألجأ هنا، أفزع هنا، بحيث أن العبد يبقى في يومه وليلته مراقبًا لحركة قلبه وعلاقته بربه، فهو تفكيره كله لواحد ولذا هو توحيد، يعني يصبح العبد واحد في الأرض لواحد في السماء، لا يفكر إلا في رضاه.

هذه المسألة لا تأتي قفزًا أبدًا، يعني لا يستطيع الإنسان قفزًا مرة واحدة أن تصبح حياته أو أغلب حياته بهذه الصورة، لكن هذه المسألة تحتاج من العبد تدريب، تحتاج **ثلاثة موارد:**

أولًا: زيادة معايشة لمعرفة الله، يعني عرفت الله وعرفت أسماؤه وصفاته لابد أن تعايشها معايشة، يعني تعيش أنك في رحمته، تعيش أنك طمعان في رضاه، تعيش أنه سيجبرك، تعيش أنه سيرزقك، ولا يصلح أن تقول كلامًا إنما لابد أن تعيش، إذًا معايشة أسماء الله–عزَّ وجلَّ–وصفاته وأفعاله.

ثم الأمر **الثاني**: المراقبة، مراقبة قلبك، المراقبة الدائمة للقلب إلى أي جهة يتّجه القلب؛ لأن الغفلة هي أحد أهم أسباب ترك الإنسان للتوحيد، نكون سائرين لا نريد إلا وجه الله، نبتدئ العمل لا نريد إلا وجه الله، نحج لا نريد إلا وجه الله، نبتدئ ونحن نقول لأنفسنا أننا نريد وجه الله وعند أول موقف يلتفت قلبنا لغير الله، عند أول موقف نجد أنفسنا نفشل في حركة قلوبنا ومراعاتها لغير الله.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه (كتاب الطب، باب من اكتوى، 5705)

يعني لا تتصوروا أن هذا يجعلنا لا نراعي الناس! نحن في البداية تبيَّن لنا أن الناس كلهم قد حُدّدت الحدود معهم وقيل لنا تقرّبوا إلى الله بعلاقتكم بالناس، تقرّبوا إلى الله بإكرام الجيران، تقرّبوا إلى الله بإكرام الضيوف، تقرّبوا إلى الله ببر الوالدين، يعني الخلق علاقتك بهم قربة إلى الله، لا تتصور أن علاقتك بهم ممنوعة، هي تدخل في التوحيد ولا تمنعك، لكن أين الأزمة؟

الأزمة هل تتعامل معهم وأنت تراقب قلبك أنه لله أم لغير الله؟ فطوال الحج وطوال الحياة-طول الحج لأنها أيام معدودات كأنها تدريب-ماذا تفعل؟ المفترض أن تزداد معايشة لأسماء الله.

تخرج من الحملة وأنت لست معتمدًا على الحملة ولا على القطار ولا على المرشد ولا على أي شيء، إنما معتمد على الله، مستعين بالله، تسير ليس لأنك نمت جيدًا أو أنك أكلت جيدًا أو لأنك شاب وأن لك حول وقوة، وإنما تسير على أن الحول والقوة من عند الله.

لا تتحرك على أساس أنك تعرف الطريق إنما تتحرك على أساس أن الله يهديك، تتحرك على أساس أن الله يحميك، تتحرك على أساس أن الله يحفظك.

وهكذا معايشة الإيمان، معايشة أسماء الله وصفاته، الأربعة أيام في الحج نموذج والحياة كلها هي المعركة أنك تعيش الأسماء، عندما تدخلين نموذج في الحج حقيقة ييسّر عليك الحياة؛ لأن هناك لحظات تذوق طعم معاملة الله، يعني الحج أيام قصيرة لكن معاملات متتالية من الله لخلقه، هنا يحفظهم، وهنا يقويهم، وهنا يسترهم، وهنا يمدهم بعطية لم تكن على بالهم، هنا يوصلهم، هنا يدبّرهم، فأربعة أيام فيها أحداث متتالية متتالية وأنت أصلًا تتحرك تخرج من هنا وتدخل إلى هنا، كلها تجد فيها معاملة الله لابد أن تكون بصيرًا بهذه المعاملة.

فالتوحيد بعد الأسماء بعد المعرفة، عرفت الله وحفظت الأسماء وقرأت القرآن ويمكن أن تشرح لأحد ما معنى الصمد وما معنى القريب وما معنى المجيب، بعدما عرفت هذا كله تحتاج أن تعايشه...المعايشة، والمعايشة تحتاج عين بصيرة، هنا ترى آثار حفظه، هنا آثار ستره، هنا آثار أنه قوي متين، هنا آثار أنه جبار، هنا آثار أنه-سبحانه وتعالى-قريب مجيب...وهكذا يعايش الإنسان آثار أسماء الله-عزَّ وجلَّ-وصفاته في الحياة بعين البصيرة وليس بعين حافظة، عين حافظة هذه بداية القصة أن تعرف أسماء الله، لكن هذا لا يكفينا إنما لابد أن نعايشها.

إذا عايشنا نحتاج بعد المعايشة إلى المراقبة، سنعايش أسماء الله-عزَّ وجلَّ-وصفاته ونراقب قلوبنا والتفاتاتها، لابد من المراقبة، في كثير من الأحيان نعيش عملية خداع لأنفسنا، نكذب على نفسنا.

مثلًا نذهب نسأل أحدًا: هل دخل وقت الضحى أو لم يدخل؟! أنت تعرفين أنه لم يدخل أو تعرفين أنه دخل لماذا تسألين؟! تريدين أن تقولي له أنا سأصلي الضحى! نلف وندور، هذه الصورة مثل واضح، لكن هناك أبعد وأبعد وأخطر وأكثر لفًّا ودورانًا على النفس، يعني هناك رياء واضح أي أحد يراك يقول لك: هذا رياء، وهناك لفّ ودوران على

أنفسنا، على أنفسنا وحتى ليس على الناس، حتى نحن لا نكتشف أنفسنا في كثير من الأحيان أني أسأل هذه الأسئلة أو أتكلم بهذه الطريقة أو ألمح أو أي شيء من أجل أن يلتفت نظرك، نحن ليست عندنا مشكلة حقيقية إلا الناس!

ماذا يزاحم التوحيد؟! يزاحمه نفسي والناس، نفسي أريدها أن تصبح شيئًا عند الناس، والحقيقة، التوحيد: أن تريد أن يكون لك مكانًا عند الله، هذا الذي يشغلك، مكانك عند الله، الذي يبحث عن مكانه عند الله ليس مثل الذي يبحث عن مكانه عند الخلق، الذي يبحث عن مكانه عند الخلق هذا بعيد عن التوحيد، فنحن ماذا يطلب منا؟ المراقبة الدائمة لقلوبنا.

إذًا هاتان خطوتان من أجل أن نأتي بالتوحيد:

الخطوة الأولى: معايشة أسماء الله–عزَّ وجلَّ–وصفاته وأفعاله بعين البصيرة، تبصر وتدرب أن هنا يعطيك الله، هنا يرزقك الله، ليس هناك أحد إلا الله، يسخر لك الله، يفتح عليك الله، يرزقك الله...إلى أخره.

وفي المرحلة الثانية: تراقب قلبك.

ثم يأتي المورد **الثالث** وهو: كثرة ذكر الله، هنا يحتاج الأمر إلى ذكر بالقلب وذكر باللسان، والحج أحسن مكان لكثرة ذكر الله.

لو سألنا هذا الموحد: من أعطاك؟! ربنا رزقنا على يد فلان.

عند أي طبيبٍ استشفيت؟! الله هو الطبيب وسخر لي فلان.

وهكذا إلى أن لا تعرف تحكي قصة إلا ويلازمك في القصة قول: الله أعطانا، الله رزقنا، الله حفظنا، الله جبرنا، الله سترنا، إلى أن يحفظ من يكلمك من هو الله من كلامك.

سخر لنا الله، لم يتركنا الله، والله لا يمكن أن يقدر على العبد أقدارًا ولا يدله كيف يسير فيها، فأنت تمجد الله، عبد يمجد الله، عبد يرى عظمة الله، ليس فقط يرى عظمة الله في نفسه بل من كثرة ما عايش عظمة الله يصبح لسانه غصب عنه يتكلم عن الله، فالذاكر لله هذا الذكر الحقيقي إنما هو حقًا لله.

أنتم انظروا حين نحب أحدًا من أبنائنا أو من أحفادنا نتكلم عن هذا طوال الوقت ونحكي عنه، فهذه إشارة طبيعية للمحبة الكلام، الذكر، فعندما يعرف العبد ما معنى أن يحب الله؛ يبقى لاهجًا بذكره، متكلمًا عنه، متكلمًا يعني مسبحًا مكبرًا مهللًا هذا الذكر المعروف، وأكثر من ذلك تجده يمجّد الله للخلق، تجده لا يجلس مجلسًا إلا يكون مباركًا فيه كما وصف عيسى–عليه السلام–: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا}(1) من معانيها أن بركته كانت في دعوته الدائمة للتوحيد فإنه كان يُخبر عن الله بما يرقق قلوب الخلق لتوحيده.

---

(1) [سورة مريم: 31]

فالعبد المبارك هذه صفته بالضبط أنه كلما جلس مجلسًا قال: ربنا سخر لنا، لو راجعنا تاريخنا نرى كمْ ستر الله علينا، كمْ أعطانا الله، كم وكم ويبقى الإنسان يراجع الحياة على أنها من آثار رحمة الله، يراجع الحياة على أنها من آثار عطايا الله، يراجع الحياة على أنها من آثار حفظ الله، فتاريخه الذي مضى، والواقع الذي يعيشه، والمستقبل الذي ينتظره، كله تظهر فيه آثار صفات الله، إذا كان في المستقبل فهو يرجو من الله، وإن كان في الماضي فهو يحمد الله، وإن كان في الواقع فهو يرى آثار رحمة الله في كل شيء.

فترى هذا العبد راضيًا عن الله والذي يرضى عن الله أول ما تذكرينه بالله–وهذه علامة خطيرة جدًا من علامات التوحيد– مباشرة نفسه تهدأ لأن الله قال: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}(1) لكن ليس كل أحد يطمئن قلبه بذكر الله.

الناس اليوم يقرؤون على أنفسهم أذكار الصباح والمساء أو أذكار النوم ثم تقول لك: رأيت كابوسًا ورأيت وأنت تعرفين أن الله يحفظ العبد! فالسبب في ذلك أن الذي نقرؤه لا نعيشه! كيف ونحن نقرأ في آية الكرسيّ من أسماء الله–عزَّ وجلَّ–وصفاته: {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}(2) وأنت أيها العبد تأخذك سنة ونوم، فكأنك تقول: أنا في حفظ مَن لا تأخذه سنة ولا نوم، فكيف وأنت في حفظه تظن أن يأتيك أذى؟! لكن من ضعف اليقين يحصل أن يتكلم كلامًا لا يجد أثره!

كيف نقرأ سورة الإخلاص ونجد أنفسنا نعتمد على غير الله؟!

هذا على كل حال كله ضعف في معايشة أسماء الله وفي مراقبة القلب مع الله ونتيجته واضحة جدًا، النتيجة المعروفة في قلة ذكر الله، قلة ذكر الله باللسان وقلة ذكره بالقلب.

هذه الثلاثة موارد واضحة جدًا في التوحيد، الآن نريد أن نربط هذه الثلاثة موارد بإبراهيم–عليه السلام–:

إبراهيم–عليه السلام–من أكثر الأنبياء الذين يُذكرون بعد نبينا–صلى الله عليه وسلم–في حياتنا وأكبر شاهد على ذلك عندما نقرأ في التحيات نذكر اسمه كما هو مشهور، هذا إشارة إلى مكانته العظيمة عند الله–عزَّ وجلَّ–، ثم من قرأ القرآن عرف أن إبراهيم–عليه السلام–له مقامات في التوحيد عظيمه وأكثر هذه المقامات تظهر في الحج وهذا الذي يربط التوحيد بإبراهيم–عليه السلام–والحج، فمكانته تظهر بوضوح في سورة الأنعام وهو يجادل قومه، وأنتم تعلمون المجادلة التي في سورة الأنعام التي يعرض فيها إبراهيم–عليه السلام–المعبودات التي يعبدها قومه الشمس القمر الكواكب، وهو في هذه المجادلة لم يكن شاكًا أبدا بل ما مر عليه الشك وإنما كان يتنزّل مع قومه لأنه يعرف كمال صفات ربه، فيقول لهم مثلًا عن الشمس لمّا غابت: لا أحب الآفلين، وفي كذا وفي كذا يبيِّن لهم أنه لا يمكن أن يكون إلهًا إلا وهو لا يغيب وهو يدبِّر ولا يُدَبَّر، فمعرفته بصفات الله جعلته يجادل قومه كما في سورة الأنعام.

---

(1) [سورة الرعد: 28]

(2) [سورة البقرة: 255]

وجعلته يجادل النمرود كما في سورة البقرة لما قال له كما هو معروف في قصته في كونه: {قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ}[1].

المقصد أن من معرفته لربه له مقامات طويلة في مجادلة قومه ومجادلة أهل الكفر، ولما كسر أصنامهم وعرَّض نفسه لما هو معلوم ومع ذلك جادلهم وقال لهم: اسألوا كبيرهم، هذا كله من المجادلة تدل على ماذا؟ على قوة المعرفة التي لم يُحتفظ بها فقط إنما وصلت لحد البيان، وصلت لحد مجادلة أهل الباطل، هذه قوة في معرفة الحق.

فالمقصد أن إبراهيم–عليه السلام–له المقامات الواضحة في التوحيد ابتداءً بمجادلته لأهل الباطل لأهل الشرك، وبيان كمال صفات الله، فكل الآيات التي في المجادلة التي في الأنعام والتي في البقرة كلها تدور حول إظهار كمال صفات الله فهو من جهة معرفته بالله يعرفه حق المعرفة، ثم انظروا إلى مقاماته الأخرى كيف لما ألقي في النار ماذا قال؟ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ"[2].

انظروا كيف لما رأى رؤية في ذبح ابنه ومن صعوبة الفتنة لم يأتِهِ أمرًا مباشرًا إنما أتاه عن طريق رؤيا وهذا الأمر مشهور ومع ذلك امتثل أن يذبح ابنه ومعلوم أن ابنه هذا أتاه بعد زمن...إلى آخره.

كل هذا إشارة إلى أن مقاماته في التوحيد سواء في مجادلته لأهل الشرك أو كان في نفسه وإقامة التوحيد وقوة يقينه بالله كانت المقامات العالية من جهة التوحيد.

وهو أيضًا بالنسبة لهذه الأمة يعتبر نموذجًا يُحتذى به من جهة دفاعه عن التوحيد ونشره وبنائه للكعبة، نظرنا في سورة الحج الخطاب للنبي–صلى الله عليه وسلم–ويقول فيه الله–عزَّ وجلَّ–: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ} فكأنه يقال: أنتم يا أيها الأمة، يعتبر إبراهيم بالنسبة لكم إمامًا تحتذون به لأنكم على الحنيفية السمحة التي هي دين إبراهيم–عليه السلام–، فنحن لسنا مع اليهود ولسنا مع النصارى إنما نحن أتباع لإبراهيم–عليه السلام–، وموسى–عليه السلام–وعيسى–عليه السلام–نفس الصورة أنهم أتباع لإبراهيم–عليه السلام–.

هذا كله عندما يأتي بعد ذلك الخبر عن الحج، تجد الحج تام الارتباط بإبراهيم–عليه السلام–، من أي وجه تام الارتباط؟ سنرى في الآيات، ربطنا بين أمرين: بين التوحيد وإبراهيم–عليه السلام–، عرفنا التوحيد وهو معرفة الله ومراقبة القلب وكثرة ذكر الله، طبقيها في إبراهيم–عليه السلام–:-

معرفة الله واضحة جدًا.

ومراقبة القلب كيف كانت؟! قال لجبريل–عندما سأله: ألك حاجة؟–: "أمَّا إليك فلا وأما إلى الله فحسبي الله ونعم الوكيل" ولما أتته الرؤية لم يزغ بقلبه يمينًا ولا يسارًا ولا قال: هذه مجرد رؤيا ! إنما استسلم.

ثم تراه في المسألة الثالثة كثرة ذكر الله، ومن ذلك أنه كان يجادل عن حق الله في كل موطن.

---

(1) [سورة البقرة: 258]

(2) رواه البخاري في صحيحه (كتاب تفسير القرآن، باب {إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم}، 4564)

إذًا إبراهيم–عليه السلام–حقق موارد التوحيد الثلاثة:

الأمر الأول: معرفة الله معايشتها ورؤيتها بعين البصيرة ولذلك وجدتيه هنا يقول وهنا يقول.

والأمر الثاني: أنه يراقب قلبه.

والأمر الثالث: كثرة ذكر الله ومنها مجادلة في الحق.

هكذا أصبحت علاقة بين التوحيد وإبراهيم–عليه السلام–.

إبراهيم–عليه السلام–والحج:

في سورة الحج أول ما بدأ الخبر عن الحج بدأ بقصة البيت، الحج بمعنى القصد، ونحن نحج يعني نقصد البيت معظّمين لهذا البيت؛ لأنّ الله–عزَّ وجلَّ–أمرنا بالتعظيم، فأول ما تسمع قصة البيت –وهذا أمر لابد أن تعرفه جيدًا–تسمع: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ إذًا معناه ارتباطك بالبيت مبدؤه إبراهيم–عليه السلام–، وإبراهيم–عليه السلام–الذي موقفه من التوحيد كما سمعتم.

إذًا في العلاقة بين إبراهيم والتوحيد أول شيء نسمعه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ يعني أنت بنفسك لا تشرك ولا تأتي في هذا البيت بالشرك، وإذا ظهر أي مظهر من مظاهر الشرك أو العصيان ماذا تفعل به؟! طهّره.

إذًا، إبراهيم–عليه السلام–بنى البيت على قواعد التوحيد بحيث أنه لم يشرك ولم يسمح لأحد أن يشرك في البيت، وإذا ظهر أي مظهر كان المطلوب منه تطهيره، الذي يسير على منهج إبراهيم–عليه السلام–لابد أن يكون موحدًا، وهو بنفسه لابد أن يكون طاهرًا من الشرك وإذا رأى أي مظهر من مظاهر الشرك يجب عليه تطهير هذه الأماكن من مظاهر الشرك.

هل اليوم الشرك موجود في الحرم؟! بصورة عامة سنقول: لا، لكن عندما نبحث في الدسائس سنرى أشكالًا من الشرك، نرى الشرك الذي لنا علاقة به، أما الجماعة الذين ينادون غير الله فأسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن يردهم إليه ردًا جميلًا أو يمنعهم عنا ويمنع كيدهم.

نبقى فينا نحن وحين تسمع أن الرياء شرك أصغر وحين تجد الناس يطوفون ويصورون أنفسهم أنهم طافوا! ويسعون ويصورون أنفسهم أنهم سعوا، يقرؤون القرآن ويصورون أنفسهم أنهم قرؤوا، يدعون ويصورون أنفسهم أنهم دعوا، ولا يكتفون بتصوير أنفسهم فقط، بل هم وذراريهم ومَن حولهم ثم هناك خدمات تقدم طبعًا للآخرين أيضًا! كل هذا شيء مخيف أن تبدأ مثل هذه الظواهر تحصل ويصبح من السهل جدًا إشهار الطاعات! لا ندخل في نية أحد إنما نقول:

إشهار الطاعات بداية الخطر، الذي لا ينتبه أنه رياء ولا قصده هذا شأنه لكن المسألة خطيرة جدًا؛ لأن الأصل في العبادات أنها تكون خفاءً ونحن أصلًا لا ينقصنا في الحج والعمرة أي إشهار إنما يكفي الناس الذين حولنا وتكفي القافلة التي نخرج معها، ما فائدة أن نُعلِم الناس في آخر الدنيا أننا طفنا وأننا سعينا!

كل هذا من أجل أي شيء؟! لأن التوحيد لم يقع في القلوب في مكانه، من أجل أن التوحيد لم يحمى والمفترض ألَّا يحمى التوحيد فقط، بل حِمى التوحيد التي تحمى!

وهذا من أجل أن نفهمه جيدًا تذكروا حديث النبي-صلى الله عليه وسلم-الذي مَثَّل المثلَ لمحارم الله بالحِمى الذي يحميه مالكُ الأرض، ويمنع الناس من الدخول فيه[1]، وصف كأن حديقة مزرعة ولها حدود، والراعي مطلوب منه أن لا يرعى بجانب الحِمى، يمكن أن يأتي أحد يقول: أنا وراء السور. أي: لم أدخل حِمى الناس إنما أنا في خارج السور. فنقول: عندما تقترب من الحمى-يعني من السور-الشجر متدلٍ فماذا ستفعل الغنم؟! لن تستطيع أن ترده أبدًا إنما ستمد نفسها وتأكل من المزرعة.

فمطلوب منَّا أن نحمي حمى التوحيد، يعني نفس الحمى أيضًا نبتعد عنه، فلا تقل: ليس قصدي أن يراني الناس. أنت تعلم أنك مثلًا لو كتبت دعاءً سيسألونك: أين أنت؟! تقول: ليس قصدي! نقول: انتهى! أنت المطلوب منك حماية الحمى، ولا يقل أحد: لا تعقدها!

تذكروا المثل: كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع، تصوروه جيدًا وكيف أن هذه الغنم لا تستطيع أن تتحكم فيها ونفسك هذه ماذا تحسبها!؟ نحسبها بالريموت نستطيع أن نتحكم فيها؟! إنما تنقلب على الإنسان تفسد عليه كل شيء! تأتيه هذه الثانية التي يتمتع فيها بثناء الناس فيفسد عليه كل شيء؛ فمن أجل ذلك نحن لابد أن نحمي الحمى ونبقى خائفين على توحيدنا وعلى أعمالنا.

فإبراهيم-عليه السلام-أمر أن يطهر البيت وهذه وقفة مهمة جدًا لابد أن نطهر البيت من أفعال الشرك وخصوصًا التي نحن نمارسها، يعني نحن ليست لنا سلطة على غيرنا لكن الذين لهم سلطة هم الذين يحاسبون على تطهير البيت على وجه العموم من أدران الشرك، والحمد لله الوضع العام ليس فيه شرك ظاهر أسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يزيد بركة أهل التوحيد ويرفع رايته ويحفظ هذه الدولة ويحفظ عليها توحيدها وينصرها على أعدائها الذين هم أعداء الإيمان والتوحيد.

ما المطلوب منا نحن؟! نطهر البيت من أن نقع نحن وذرارينا وأقرباءنا وأصحابنا من صور الشرك، وإبراهيم-عليه السلام-لما بوَّأه، لما هيَّأ الله-عزَّ وجلَّ-له البيت، كان أول أمر: لا تشرك وطهر، لا تشرك بي شيئًا. وما المتوقع من إبراهيم-عليه السلام-وله هذه المقامات في التوحيد وله هذا الدفاع عن التوحيد وله هذه المراقبة في التوحيد وله هذا الذكر لله-عزَّ

(1) الحديث أخرجه البخاري (52)، ومسلم (1599)باختلاف يسير، قال رسول الله: "الحَلَالُ بَيِّنٌ، والحَرَامُ بَيِّنٌ، وبيْنَهُما مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرْضِهِ، ومَن وقَعَ في الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أنْ يُوَاقِعَهُ، ألَا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألَا إنَّ حِمَى اللَّهِ في أرْضِهِ مَحَارِمُهُ".

وجلَّ-؟ لكن مع ذلك يقال له: لا تشرك. إذًا نحن من باب أولى أن لا نقع في الشرك ونخافه ونخاف أيضًا أن نترك التطهير.

فاترك عنك ملاحظة الخلق ومكانهم من أجل أن لا يلتفت قلبك لأي صورة من صور الشرك، بمعنى أن أخطر شيء عندنا في التوحيد الآن بالنسبة لنا الرياء، ومشكلة الحج الحقيقية عند الناس اليوم أنه لا يرتحل الإنسان اليوم مع أهله وقرابته الجماعة الذين يعرفونه ويعرفون أنه مقصِّر، الله يعينه على نفسه! إنما يرتحل مع جماعات أخرى، يرتحل مع قافلة، فلما يرتحل مع قافلة وهم لا يعرفونه فيحسّن صورته أمام الناس فتأتي المشكلة من هنا، يعني من هنا يكون الحج باب للمجاهدة حول التوحيد والسبب: الناس! غصب عنك قلبك يلتفت لهم، فأنت في جهاد عظيم لتلم قلبك.

ولذا عندما ربنا ينعم عليك وتحج مع ناس لا تعرفهم، تمتع بالنعمة أي لا تكوِّن علاقات اجتماعية، لا تقل: أنا اجتماعي ولا أستطيع أن أعيش هكذا! هي كلها أربعة أيام ترتحل فيها وتأخذ حاجتك من الحج وترجع وأنت شاكر الله-عزَّ وجلَّ-أنك لم تعرض لملاحظة الناس، المشكلة أننا ليس شرطًا أن نرائي من نعرفهم إنما فقط يمرون بجانبنا فيحصل للقلب التفاتة!! ولذا هو مرض عظيم موجود والنبي-صلى الله عليه وسلم-قال لصحابته: **((إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: ((الرِّيَاءُ))**[1] فهذا أمر خطير ولابد من ملاحظته وعدم الطمأنينة من النفوس، لا أحد يطمئن لنفسه.

سنقرأ المثل الذي ضربه الله-عزَّ وجلَّ-هنا للكلام حول التوحيد، قال تعالى:

{حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ}

هذه الآية فيها ضرب مَثَل لفاقد التوحيد وأتت بين آيتين، يعني آية (30) وآية (32) مطلع الاثنين كلام عن تعظيم حرمات الله، في آية (30) السابقة: **{ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ}**، في الآية التي بعدها 32: **{ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ}** ثم بينهم أتى هذا الخبر، ما هو الخبر؟ مطلعه في الآية السابقة: **{فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ}** لازال الكلام عن التوحيد، معناه: وأنتم حجاج اجتنبوا الأوثان، هذه الصورة ربما لا تكون واضحة لكن الأوثان هذه مسألة خطيرة جدًا ويمكن أن تكون قريبة جدًا ومعناها واسع لا نناقشها الآن.

نناقش قول الزور، ما معنى قول الزور؟

---

(1) رواه أحمد في مسنده، وإسناده حسن.

قول الزور هذا أمر يتصل أحيانًا بكلام نقوله ولا نجد أثره في قلوبنا، يعني نأتي نشكر الله نقول: الحمد لله، يُسِّرت الحجة، الحمد لله، يُسِّر الذهاب إلى عرفة، و"الحمد لله" هذه تكون خرجت من اللسان وليس لها أي شيء في القلب! الذي تقوله صدق أم كذب، (قول الزور) معناه: قول الكذب، فالصادق هذه صفته أنه يقول بلسانه ما هو موجود في قلبه؛ ولذلك في سورة المنافقون أول السورة: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} ماذا يقولون؟! {قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ(1)} هو رسول الله فأين الكذب؟! الكذب أن هذا ليس موجودًا في قلوبهم، فالذي سيقول بلسانه شيء، لابد أن يكون له أثر في وجدانه، لابد أن ما في وجدانه هو ما يخرج على لسانه خصوصًا في ذكر الله وحمد الله والثناء عليه، ليس شيء حفظناه سنتكلم به، ليست صورة يجب أن يكون شكلنا بها ونقف بها أمام الناس على أننا نفعل أو نشكر أو نحمد!

بعدها قال الله –عزَّ وجلَّ-: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ} ما صورته؟

يعني أنت محفوظ بالتوحيد في السماء فإذا التفت قلبك لغير الله {فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ} كأنك سقطت من السماء، فكل مرة يلتفت فيها القلب لغير الله بالضبط تصوّرها كأن واحد كان محفوظ في السماء وخرّ، ما الذي حصل له؟

{فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} يعني إما تمزعه الأهواء يعني يريد رضا هذا ويريد رضا هذا أو تهوي به الريح في مكان سحيق يصبح كل عقله دائر في شخص واحد، يعني يريد واحد فقط يرضى عليه من الناس.

ومعنى ذلك أن الموحد محفوظ والمشرك قد هوى كما يسقط من أعلى مكان تتصوّره ماذا يحصل به!

أسأل الله –عزَّ وجلَّ– أن يحفظنا بالتوحيد!

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

الفهرس

اللقاء الأول..1
اللقاء الثاني..23